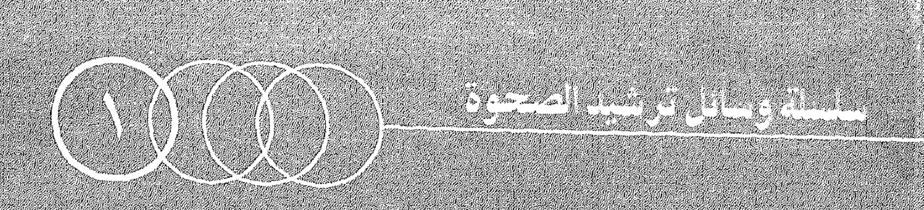


الدين في عصر العلم

دار الفرقان
للنشر والتوزيع



الدين في عصر العلم



سلسلة رسائل في ترشيد الصحوة

(١)



دكتور يوسف القرضاوي

طبعة الفرقان الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٦/٦/٨٤٥)

رقم التصنيف . ٢١٠,١٥
المؤلف ومن في حكمه : يوسف القرضاوي
سلسلة رسائل ترشيد الصحوة (١)
عنوان المصنف : الدين في عصر العلم ج١
رؤوس الموضوعات : ١ - الديانات
٢ - الاسلام والعلم
رقم الايداع : (١٩٩٦/٦/٨٤٥)
الملاحظات : عمان / دار الفرقان
* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار الفرقان للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس، مقابل وزارة التربية والتعليم
تلفون: ٦٤٠٩٣٧ - ٦٤٥٩٣٧ - ٦٢٨٣٦٢
ص. ب (٩٢١٥٢٦)، عمان - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومَن اتبع هداه .

أما بعد . .

فمنذ بضعة عشر عاماً نشرت مجلة « منار الإسلام » التى تصدر بدولة الإمارات العربية المتحدة ، بحثاً لى ، ظهر فى عدة مقالات ، تحت عنوان « الدين فى عصر العلم » ثم نشرته المجلة متكاملاً فى ملحق لها ، فى صورة رسالة مستقلة .

ولقد أخذتُ هذا البحث وجعلته الفصل الأول من كتابى « بيِّنات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربِّين » .

وذلك لأن هذا البحث يرد على شبهة رائجة يقول أصحابها : كيف تدعوننا إلى الحل الإسلامى ، وهو حل

يعتمد على الدين ، ويعتبره مرجعاً للمجتمع فى أسسه التشريعية والأخلاقية والثقافية والاجتماعية ، فى عصر العلم والتكنولوچيا ، وقد انتهى عصر الدين ، وتقوَّضت خيامه ؟ وقد رأينا أن الغرب لم يتقدم وينطلق إلا بعد أن طلَّق الدين ، وتحرر من رِبقة رجاله وكهنوته ، واتجه إلى العلم والعقل ، يحتكم إليهما ، ويستضئ بنورهما ؟ فإذا كنا نريد أن ننهض كما نهض الغرب ، وأن نرقى كما رقى ، فلنصنع كما صنع ، ولنتحرر من الدين كما تحرر !

سنتبين فى هذا البحث : أن لا خصومة عندنا بين الدين والعلم ، وأن العلم عندنا دين ، والدين عندنا علم ، وأن حضارتنا هى الحضارة التى جمعت بين العلم والإيمان ، وأن المنهج العلمى التجريبى الاستقرائى - الذى تفخر به الحضارة الغربية ، وقامت نهضتها وتقدمها على أساسه - إنما اقتبس من حضارتنا العربية الإسلامية ، كما شهد بذلك مؤرخو العلم ..

كما بيَّن هذا البحث أن دور الدين لم ينته ، ولن ينتهى ، لأنه فِطرة الإنسان التى فطره الله عليها ، وهو روح الحياة ، وجوهر الوجود . وحاجة الإنسان إلى الدين لا يمكن أن

تنتهى ، حاجة عقله وقلبه ، حاجة الفرد ، وحاجة المجتمع ، وأنه لا بديل عن الدين ، لا العلم ، ولا الفلسفة ، ولا الأيديولوچيا الوضعية ، ولا غيرها .

حتى الماركسية التى زعمت أن الدين أفيون الشعوب جعلت من نفسها ديناً ، وأعطت فلسفتها خصائص الدين .

كما رددنا على قانون الدورة الثلاثية ، الذى قال به الفيلسوف الوضعى الفرنسى الشهير « أوچست كومت » .

وبهذا كله يتضح لكل منصف أن الدين باق ما بقيت الحياة ، وأن له مهمته كما للعلم مهمته ، ولا سيما دين أول آية نزلت من كتابه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . . والقراءة مفتاح العلم وسبيله .

وبالله التوفيق ، وعليه قصد السبيل .

القاهرة فى ربيع الأول ١٤١٦ هـ - أغسطس (آب) ١٩٩٥م

د . يوسف القرضاوى

* * *



الدين فى عصر العلم

ينفر بعض الناس من الحل الإسلامى لا لشىء إلا لأنه حل يعتمد على الدين ، ويستند إلى الوحى ، وهذا وحده كاف عندهم للإعراض عن هذا الحل ، فنحن فى عصر العلم ، لا فى عصر الدين ، فقد أدَّى الدين - فى رأيهم - دوره ، ولم يعد له فى الحياة الحديثة مكان !

وحُجَّة هؤلاء :

أولاً : أن الحضارة لا قيام لها إلا بالعلم ، والدين يعادى العلم ، والغرب الحديث لم يبلغ ما بلغ من الرقى إلا حينما رفض منطق الدين ، وآمن بمنطق العلم .

فإذا أردنا أن نجارى الغرب فى مدنيته وحضارته فعلينا أن نسير سيره ، ونخلع رِبقة الدين من أعناقنا ، وإلا بقينا فى نطاق التخلف والانحطاط .

ثانياً : التسليم بما ذهب إليه فيلسوف المدرسة الوضعية

الفرنسية « أوجست كومت » من القول بقانون الأدوار الثلاثة التى بدأت بالدين ، وثنَّت بالفلسفة ، وانتهت بالعلم ، وهو غاية المطاف .

ثالثاً : ترديد ما قاله « ماركس » : أن الدين أفيون الشعب ، فيتعيَّن منعه ومقاومته حتى يتخلص الشعب من الخنوع والتسليم والإذعان ، وينهض للمطالبة بحقوقه ، ويثور على الأوضاع الظالمة الفاسدة .

* *

● الحضارة والعلم :

أما أن الحضارة لا قيام لها إلا بالعلم فهذا صحيح . وأما الربط بين قبول منطق العلم ورفض منطق الدين ، واعتقاد أن الدين يعادى العلم ، فهذا غير صحيح .

الدين الذى عادى العلم ووقف فى وجهه ، وحكم على رجاله بالموت أو بالحرمان من ملكوت السماء ، هو دين الكنيسة الغربية ، التى حجرت على الفكر ، وعارضت العلم ، وتبنت نظريات علمية قديمة أضفت

عليها القداسة والعصمة ، وحاربت كل مَن انتهى بحثه إلى مخالفتها ، ورمته بالزندقة والإلحاد .

هذا موقف دين الكنيسة ، ولا أقول دين المسيح .

* *

● موقف الإسلام من العلم :

أما الإسلام . . فهو دين قام منذ بزغ فجره على احترام العقل ، والدعوة إلى النظر والتفكر فى الأنفس والآفاق ، فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وخصوصاً أن الله سخَّر للإنسان ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، كما قام على رفض كل دعوى بغير برهان ، والإنكار على التبعية والتقليد ، وعلى اتباع الظنون والأهواء ، وتجريم السحر والكهانة والعرافة وما يلحق بها من الأباطيل . . وإلى جوار ذلك الإشادة بالعلم والعلماء ، وتفضيل درجة العلم على درجة العبادة ، والترحيب بكل علم نافع دينياً كان أو دنيوياً ، بل فرضه فرض كفاية على الأُمة بقدر ما يحتاج إليه المسلمون ، وأخذ الحكمة من أى وعاء خرجت ، وبهذه المبادئ

والتوجيهات الرائدة ، صنع الإسلام « المناخ » النفسى والاجتماعى لازدهار العلم ، وقيام حياة علمية مضيئة الجنبات .

و« العقلانية » فى الإسلام أمر اعترف به كل منصف ، ولو كان من خصوم الإسلام أنفسهم .

فهذا الكاتب الماركسى « مكسيم رودنسون » يقول فى حديثه عن « العقيدة القرآنية » (١) : « القرآن كتاب مقدَّس تحتل فيه العقلانية مكاناً جد كبير . فالله لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين ، بل إن أكثر ما يلفت النظر هو : أن الوحى نفسه - هذه الظاهرة الأقل اتساماً بالعقلانية فى أى دين ، الوحى الذى أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور ، وعلى خاتمهم محمد - يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان ، فهو فى مناسبات عديدة ، يكرر لنا أن الرسل قد جاءوا بـ « البيِّنات » . . . وهو لا يألو يتحدى معارضيه أن يأتوا بوحى مثله . . .

« والقرآن ما ينفك يقدِّم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية : ففى خلق السموات والأرض ، واختلاف اللَّيل

---

(١) ص ١٣٤ وما بعدها من كتابه « الإسلام والرأسمالية » ترجمه نزيه الحكيم ، نشر دار الطليعة .

والنهار ، وتوالد الحيوان ، ودوران الكواكب والأفلاك ، وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية ، تنوعاً رائع التطابق مع حاجات البَشر : ﴿ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ ﴾ [1] ، [2] .

« وفعل « عَقَل » (بمعنى : رَبَط الأفكار بعضها ببعض .. حاكَم .. فَهِم البرهان العقلى) يتكرر فى القرآن حوالى خمسين مرة ، ويتكرر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستنكارى ، وكأنه لازمة : ﴿ أفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟! والكفار أولئك الذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد ، يوصفون بأنهم : ﴿ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لأنهم قاصرون عن أى جهد عقلى يهز تقاليدهم الموروثة ، وهم بهذا كالعجماوات والأنعام ، بل أكثر عجمة ... ولذلك يكره الله هؤلاء الناس الذين لا يريدون أن يعيدوا النظر فى أسس تفكيرهم .

---

(١) كان الأولى الاستشهاد بآية البقرة رقم (١٦٤) فهى المطابقة لكلام المؤلف هنا ، ويبدو من كلام المؤلف : أنه تتبع مادة « عقل » فقط فى القرآن ، ولو تتبع كلمات أخرى فى الموضوع مثل : « نظر » ، و« تفكر » ، و« فقه » ، و« علم » ، و« برهان » ، و« لب » ونحوها لخرج بشىء كثير وكثير جداً .

(٢) آل عمران : ١٩٠

« ولئن كان (يعنى الله سبحانه) يرسل الآيات « الدالة » على وجوده وإرادته ، وأهمها الآيات المنزَّلة على نبيه محمد ، فلكى يفهمها الناس ، ويجعلوا منها أساساً لتفكيرهم ، ونرى الله يقدِّم البيِّنة الفاصلة ، ثم يختتم البرهان بقوله : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

ويستمر الكاتب فى بيان عقلانية الإسلام مقارناً هذه بما جاء فى العهدين القديم والجديد ، لليهود والمسيحيين ، إلى أن يقول : « فى مقابلة هذا تبدو « العقلانية القرآنية » صلبة كأنها الصخر » (٢) .

ومثل هذا المناخ العقلى الذى صنعته آيات القرآن - كما اعترف به المفكر الماركسى وغيره - يشكل أخصب بيئة لإنتاج علمى مثمر ، قائم على استخدام أقصى الطاقات والمواهب البَشرية .

---

(١) الروم : ٢٨

(٢) انظر فصل « العقيدة القرآنية » من كتاب « الإسلام والرأسمالية » .

ولكنَّا نضيف إلى ما ذكر أموراً مهمة فى موقف الإسلام من العلم ، منها :

١ - إشارة القرآن إلى استخدام « التخطيط » فى السياسة الاقتصادية والتموينية للدولة ، كما هو واضح فى « الخطة الخمس عشرية » من قصة يوسف الصِّدِّيق - عليه السلام - فى القرآن الكريم - وكيف كانت هذه الخطة الحكيمة سبباً فى إنقاذ مصر وما حولها من الأقطار من مجاعة مهلكة . فليس التخطيط - إذن - منافياً لعقيدة الإيمان بالقَدَر ، كما يفهم بعض السطحيين [١] .

٢ - استخدام النبى ﷺ لأسلوب « الإحصاء » منذ عهد مبكر من حياة المسلمين فى المدينة ، فقد روى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة ، أمر بعض أصحابه أن يحصوا له عدد الذين يلفظون بالإسلام . فأحصوهم ، فكان عددهم خمسمائه وألفاً [٢] .

وبهذا نعلم أن « الإحصاء » أسلوب إسلامى أصيل ، وليس سلعة مستوردة من الغرب .

---

(١) انظر « الإسلام والمنهج العلمى » للدكتور عبد العزيز كامل .

(٢) رواه البخارى فى كتاب « الجهاد » من صحيحه .

٣ - إقراره صلوات الله وسلامه عليه لمبدأ التجربة فى الأمور الدنيوية ، والأخذ بنتائجها وإن كانت مخالفة لرأيه صلى الله عليه وسلم ، كما وقع ذلك فى حادثة تأبير النخل وقوله لهم فى ذلك : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » (١) .

٤ - تشجيع الاقتباس وأخذ النافع من الغير ، فى الأمور « التقنية » والدنيوية ، التى لا تتعلق بالعقائد والقِيَم والآداب والشرائع ونحوها ، مما تتمايز به المجتمعات « الأيديولوجية » بعضها عن بعض . ولهذا أخذ الرسول ﷺ برأى سلمان فى حفر الخندق حول المدينة ، مع أنه من أساليب الفُرس . وصنع له نجار رومى منبراً يخطب عليه . وقد روى عنه قوله عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها » (٢) .

٥ - إشادة القرآن الكريم بقيمة الصناعة ودورها فى

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه فى سننهما . وسنده ضعيف ، ولكن معناه صحيح .

الحياة ، حتى إن رُسُل الله والمصطفين الأخيار من عباده كانوا أصحاب حِرَف وصناعات أتقنوها وتفوقوا فيها . فنوح شيخ المرسلين يصنع السفن ، وإبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل بَنَّاءان يرفعان القواعد من البيت (الكعبة) ، وداود يصنع الدروع ويلين له الحديد . . وسليمان يسيل الله له عَيْن القَطْر ، ويُسخِّر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، وذو القرنين يقيم السدَّ العظيم من الحديد والنحاس المذاب (١) .

وهذا كله يبيِّن لنا طبيعة « المناخ » الذى هيأه الإسلام لظهور « المنهج العلمى » السليم ، الذى لم يملك باحثو الغرب أن ينكروه .

يقول العلَّامة « رينيه ميليه » : لقد جاء المسلمون بمبدأ فى البحث جديد ؛ مبدأ يتفرَّع من الدين نفسه ، هو مبدأ التأمل والبحث ، وقد مالوا إلى العلوم وبرعوا فيها ،

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك : فصل « الرسول والعلم التجريبى » من كتابنا : « الرسول والعلم » نشر مؤسسة الرسالة ، ودار الصحوة .

وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء ، وقد وُجِدَ فيهم كبار الأطباء » .

ويقول الدكتور « فرنتو رونثال » : « إن أعظم نشاط فكرى قام به العرب يبدو لنا جلياً فى حقل المعرفة التجريبية ، ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين ، حين يلاحظون ويمحصون ، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلَّموه من التجربة » .

ويقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعى الشهير « چوستاف لوبون » : « إن العرب هم الذين عَلَّموا العالَم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

* *

● أثر العلم الإسلامى فى الحضارة :

ولا عجب أن قامت فى هذا المناخ حضارة سامقة الذرا ، جمعت بين العلم والإيمان ، ومزجت بين الدين والدنيا ، حتى إن أوروبا لم تُقِم نهضتها العلمية إلا حين مسَّها قبس من نور هذه الحضارة ، أخرجها من سجن التقليد

والدوران حول القديم ، من القياس الأرسطى ، والمنطق الصورى ، إلى باحة الكشف والاستقراء والملاحظة والتجربة ، وكل ذلك من أثر المنهج العلمى الإسلامى الذى اكتشفه المسلمون متأثرين بالإسلام قبل أى شىء آخر .

يقول المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى الفرنسى الدكتور « جوستاف لوبون » فى فصل له عن « مناهج العرب العلمية » من كتابه « حضارة العرب » :

« ليست المكتبات والمختبرات والآلات غير وسائل للدرس والبحث ، وتكون قيمتها فى معرفة الاستفادة منها ، وقد يستطيع المرء أن يكون مطَّلِعاً على علوم الآخرين ، وقد يبقى عاجزاً عن التفكير وابتداع أى شىء مع ذلك ، فيظل تلميذاً غير قادر على الارتقاء إلى درجة أستاذ ، وسيبدو من الاكتشافات التى نذكرها فى الفصول الآتية ، مقدار ما اكتشفه العرب بما لديهم من وسائل الدرس . . والآن أقتصر على ذكر المبادئ الأربعة التى وجَّهت أبحاثهم :

لم يلبث العرب بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان ، أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل

الكتب ، وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة جَدَّ علماء القرون الوسطى فى أوروبا ألف سنة قبل أن يعلموها .

ويُعْزَى إلى « پيكون » على العموم أنه أول مَن أقام التجربة والترصد اللَّذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة مقام الأستاذ ، ولكن يجب أن نعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم . . وقد أبدى هذا الرأى جميع العلماء الذين درسوا مؤلَّفات العرب ، ولا سيما « هَنبولْد » ، فبعد أن ذكر هذا العالِم الشهير أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة فى العلوم قال : « إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريباً » .

وقال « مسيو سيديُّو » : « إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد فى البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التى كانت سائدة لأعمالها ، وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق فى الحوادث تدقيقاً مؤدياً إلى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير تجربة مبادئ قال بها أساتذة من العرب ، وكان العرب فى القرن التاسع من

الميلاد حائزين لهذا المنهاج المجدى الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات » .

قام منهاج العرب على التجربة والرصد ، وسارت أوروبا فى القرون الوسطى على درس الكتب والاقتصار على تكرار رأى المعلم ، والفرق بين المنهجين أساسى ، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق .

واختبر العرب الأُمورَ وجرَّبوها ، وكانوا أول مَن أدرك أهمية هذا المنهاج فى العالَم ، وظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً ، قال « دولَنْبِر » فى كتاب « تاريخ علم الفلك » : « تَعدَّ راصدين أو ثلاثة بين الأغارقة ، وتَعدَّ عدداً كبيراً من الرُصَّاد بين العرب ، وأما فى الكيمياء فلا تجد مجرِّباً يونانياً مع أن المجرِّبين من العرب فيها يُعَدّون بالمئات » .

ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلَّفاتهم دقة وإبداعاً لا يُنتظر مثلهما من رجل تعوَّد درس الحوادث فى الكتب ، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا فى الفلسفة التى كان يتعذَّر قيامها على التجربة .

ونشأ عن منهاج العرب التجريبى وصولهم إلى اكتشافات مهمة ، وسنرى من مباحثنا فى أعمال العرب العلمية أنهم أنجزوا فى ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الأغارقة فى زمن أطول من ذلك كثيراً ، وكان تراث اليونان العلمى قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل ، ولما آل إلى العرب حوّلوه إلى غير ما كان عليه ، فتلقاه ورثتهم مخلوقاً خلقاً آخر .

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد نشروها كذلك بما أقاموا من الجامعات وما ألّفوا من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ فى أوروبا من هذه الناحية ، وسترى فى الفصل الذى ندرس فيه هذا التأثير ، أن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأُمم النصرانية لمدة قرون ، وأننا لم نطلّع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب ، وأن التعليم فى جامعاتنا لم يستغن عما نُقل إلى لغاتنا من مؤلّفات العرب إلا فى الأزمنة الحاضرة » (١) .

---

(١) حضارة العرب ص ٤٢٣ - ٤٣٧ ، الطبعة الأولى .

ومما لا ينازع فيه أحد أن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم اهتمام كبير بالجانب العلمى ، لغلبة الجانب الأدبى والاهتمام بفنون القول عليهم .

فهذا الاتجاه العلمى الذى نوَّه به مؤرخو الحضارة الإسلامية العربية ، إنما هو من صنع الإسلام ، الذى حثَّهم على البحث والتأمل فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، والنظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وهيأ - قبل ذلك - المناخ النفسى والعقلى الذى ازدهر فيه العلم هذا الازدهار (١) .

فإذا كان مؤرخو العلم الأوروبيون قد أنكروا فضل العرب الفلسفى ، فإنهم لم يستطيعوا إنكار فضلهم العلمى ، وإن كان الكثيرون منهم يعترفون به على أساس أنه نتيجة لعلوم اليونان . وليس هنا مجال مناقشة هؤلاء .

---

(١) انظر : فصل « الرسول والعلم التجريبى » من كتابنا « الرسول والعلم » ص ٣٧ - ٦٠ ، طبع مؤسسة الرسالة - بيروت ، ودار الصحوة - القاهرة .

ونحن نعلم أن أفكار « الحسن بن الهيثم » فى علم « البصريات » عاشت فى أوروبا إلى زمان ليس ببعيد عنا ، كما نعلم أن أبحاث « الطوسى » فى « الرياضيات » وتناوله لهندسة « إقليدس » ومعادلاته ، بقيت زمناً طويلاً يتناولها علماء أوروبا ، وكذلك كتاب « ابن سينا » - الطبى - « القانون » بقى المرجع الأساسى لكليات الطب فى أوروبا حتى القرن السابع عشر .

وما زالت عناية الباحثين بالعلم العربى الإسلامى قائمة على أشدها ، مهتمين ببيان مكانته فى التراث العلمى العالمى ، وممن وجَّه الأنظار إلى قيمة هذا العلم ، مؤرخ تاريخ العلم الإنسانى ، الأستاذ « چورچ سارتون » .

وقد لفت الأستاذ الدكتور علي سامى النشار الأنظار إلى أعمال هذا الباحث الكبير ، وعلى الأخص فى كتابه الممتاز « تاريخ العلم » .

فقد عرض فى مواضع متعددة من هذا الكتاب لأهمية

العلم العربى - الإسلامى - فى العصور الوسطى . .
وقرر : أن أعظم النتائج العلمية لمدة أربعة قرون إنما كانت صادرة عن العبقرية الإسلامية .

كما بيَّن أيضاً : أن معظم الأبحاث العلمية الممتازة - خلال هذه القرون الأربعة - إنما تمت فى لغة العلم الكبرى حينئذ وهى اللُّغة العربية (١) .

ويذكر الدكتور النشار فى كتابه القيم « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، واكتشاف المنهج العلمى فى العالَم الإسلامى » نتيجتين هامتين لبحثه كله :

الأولى : أن المفكرين المسلمين الحقيقيين ، الممثلين لروح الإسلام ، لم يقبلوا المنطق الأرسطى الصورى ، لأنه يقوم

---

(١) انظر كتاب « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالَم الإسلام » للدكتور على سامى النشار ص ٣٥٣ - ٣٥٩ ، كما نبّه الدكتور النشار على كتاب لسارتون هو « العلم القديم والمدنية الحديثة » ترجمة الدكتور عبد الحميد صبرة ص ٧٨ ، ٧٩ ، ١٢٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ومواضع أخرى متعددة .

على المنهج القياسى ، ولا يعترف بالمنهج الاستقرائى أو التجريبى .

والنتيجة الثانية : أن المسلمين قد وضعوا هذا المنهج العلمى بجميع عناصره ، وكانت أسبانيا هى المعبر الذى انتقل خلاله من العالَم الإسلامى إلى أوروبا [١] .

وينقل مفكر الهند الكبير المرحوم الدكتور محمد إقبال عن « دوهرنج » قوله : « إن آراء « روجر پيكون » عن العلم أصدق وأوضح من آراء سَلَفه . ومن أين استمد « روجر پيكون » دراسته العلمية ؟ . . من الجامعات الإسلامية فى الأندلس »

ويقرر الأستاذ « بريفولت » فى كتابه « بناء الإنسانية » : أن « روجر پيكون » درس العلم العربى دراسة عميقة - وأنه لا يُنسب له ولا لسميه الآخر « فرنسيس پيكون » أى فضل فى اكتشاف المنهج التجريبى فى أوروبا . ولم

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨٢

يكن « روجر بيكون » فى الحقيقة إلا واحداً من رُسُل العلم والمنهج الإسلامى إلى أوروبا المسيحية .

ولم يكفّ « روجر بيكون » عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة الحقة لمعاصريه .

ثم يذكر أنه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوروبى لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسى عليها . ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية فى العلم الأوروبى هو تأثيرها فى « العلم الطبيعى » و« الروح العلمى » ؛ وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث ، والمصدران الساميان لازدهاره .

ويقرر « بريفولت » فى حسم وإصرار :

« إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدَّموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة . إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا . إنه يدين لها بوجوده . . .

« إن ما ندعوه بالعلم ظهر فى أوروبا نتيجة لروح جديدة

فى البحث ، ولطرق جديدة فى الاستقصاء .. طرق التجربة والملاحظة والقياس ، ولتطور الرياضيات فى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح ، وتلك المناهج إنما أدخلها العرب إلى العالَم الأوروبى » [1] .

* *

● الإسلام يوحِّد بين الدين والعلم :

وبهذا يتضح لنا أن لا مجال فى الإسلام لدعوى التعارض أو العداوة بين الدين والعلم ، فالدين فى الإسلام علم ، والعلم فيه دين . كما تشهد بذلك أُصول الإسلام وتاريخه جميعاً . فالدين فى الإسلام علم ، لأنه لا يعتمد على الوجدان وحده ، بل يقوم على النظر والتفكير ورفض التقليد الأعمى ، والاعتماد على البرهان اليقينى لا على الظن واتباع الهوى .

والعلم فى الإسلام دين ، لأن طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وهو فريضة عينية أو كفائية ، تبعاً لحاجة

---

(١) « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام » ص ٣٨٢ ، ٣٨٤

الفرد أو حاجة المجتمع . والاشتغال بالعلم النافع - دينياً كان أم دنيوياً - عبادة وجهاد فى سبيل الله . وهذه حقيقة شهدها وشهد بها كثير من الباحثين والمؤرخين الغربيين . ولا بأس أن نذكر هنا بعض هذه الشهادات تأكيداً وتثبيتاً لمن تهمهم أقوال الغربيين .

يقول العلامة « هورتن » : « فى الإسلام وحده تجد اتحاد الدين والعلم . فهو الدين الوحيد الذى يوحِّد بينهما . فتجد فيه الدين ماثلاً متمكناً فى دائرة العلم . وترى وجهة الفلسفة ووجهة العلم متعانقتين ، فما واحدة لا اثنتان » .

ويقول « إتيان دينيه » : « إن العقيدة الإسلامية لا تقف عقبة فى سبيل الفكر ، فقد يكون المرء صحيح الإسلام ، وفى الوقت نفسه حر الفكر ، ولا تقتضى حرية الفكر أن يكون المرء منكراً لله . لقد رفع « محمد » قَدْر العلم إلى أعظم الدرجات ، وجعله من أول واجبات المسلم . ويقول : « يوزن يوم القيامة مِداد العلماء بدماء

الشهداء » [1] ، ورفع فضل العلم على فضل العبادة » [2] .

* *

● مشكلة التعارض بين الدين والعلم وأين نشأت ؟

وإذا كان هذا موقف الإسلام من العلم ، فمن أين نشأت مشكلة التعارض بين العلم والدين ؟

الحقيقة كما يقول الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود [3] :

---

(١) حديث ذكره الغزالي فى كتاب « العلم » من « الإحياء » وقال الحافظ العراقى فى تخريجه : أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف .

(٢) كحديث : « فضل العالِم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » ، رواه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال : حسن صحيح .

(٣) من بحث عن « شخصية المسلم » ألقاه فى المؤتمر الرابع لـ « مجمع البحوث الإسلامية » .

« إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم ، إنما نشأت في أوروبا بعيدة عن الجو الإسلامي ، إنها تصوِّر نزاعاً في بيئة بعيدة كل البُعد عن الروح الإسلامية ، التي حثَّت الإنسانية على التعليم والتعلم ، والتي نشأ المنهج العلمي - الذي يعتبرونه حديثاً - بين ربوعها ، قديماً بقدمها ، والتي أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أنحائها العميقة .

« وما من شك في أن الحضارة الإسلامية هي - كما يقول الأستاذ « بريفولت » - التي قدَّمت إلى الحضارة الغربية الحديثة المنهج العلمي وأُصول العلم نفسه ، أي الحقائق المكتشفة في المجالات المختلفة .

« والأمر العام الذي نريد أن ننبه عليه ، هو : أن مسألة التعارض بين الدين والعلم ، إنما هي مسألة وهمية إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر .

« ذلك أن العلم وممثليه الحقيقيين : يعترفون في صراحة لا لَبْس فيها ، وفي وضوح لا خفاء فيه : بأن دائرة أبحاثهم ، إنما هي المادة ، وإنما هي المحسّ ، وأنهم يعتمدون في ذلك

على التجربة ، وعلى الملاحظة ، إنهم يعتمدون على الاستقراء على وجه العموم ، وليس الاستقراء إلا تتبع جزئيات مُحسَّة ، تتبعها بالملاحظة ، أو بإجراء التجارب عليها . والمنهج العلمى إذن : إنما هو منهج لمعرفة كيفيات المادة ، وإذا ما خرج الأمر عن دائرة المادة ، فقد خرج عن دائرة العلم .

« وعلى هذا الأساس : فليس للعلم مطلقاً دخل فى أمور الدين - إثباتاً وإقراراً ، أو نفياً وإنكاراً ، وإذا ما قال قائل : إن العلم يثبت كذا من الأُمور الروحية ، فإنه يكفينا منه هذه الكلمة ، لنسحب ثقتنا به كعالِم ، وإذا ما قال : إن العلم ينكر كذا من الأُمور الروحية ، فإن هذه الكلمة تكفى أيضاً لسحب ثقتنا به كعالِم ، إذ أن العلم فى المجال الروحى ، لا يثبت ولا ينفى ، وهذا واضح مما سبق أن ذكرناه .

« ومع ذلك فقد يتيح العلم بأبحاثه فى ارتباط الكون وتنسيقه وإبداعه ، والتناغم الذى يسوده ، والدقائق الباهرة التى يبينها « علم التشريح » - مثلاً - فى التركيب الحيوانى ،

قد يتيح العلم من كل ذلك لعلماء الدين مواد يبنون عليها تذكيرهم وعظاتهم وبيانهم : أن العالَم لم يكن نتيجة الصدفة العمياء أو الاتفاق الأصم ، يبينون من نتائج العلم أن الآيات فى مجال المادة نفسها تشهد أنها من صنع الله الذى أتقن كل شىء : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ » [1] .

* *

● العلوم لا تعارض الدين بل تخدمه من جهتين :

ويزيد أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز هذا الأمر إيضاحاً حين يتحدث عن مراتب العلوم من حيث مقومات موضوعاتها ، فيبيِّن أن لا اشتراك بين الدين والعلم فى موضوع ما ، ولهذا لا يعقل التعارض بينهما . وإنما يُتصور التفاهم وحسن الجوار على الأقل ، إن لم يكن التعاون والتضامن .

يقول - رحمه الله - فى كتابه القيم « الدين » : « ولو أننا أخذنا فى تصنيف موضوعات العلوم ، لا باعتبار شرف

---

(١) فصلت : ٥٣

غايتها المباشرة ، بل بحسب مقوِّماتها النوعية ، وتكامل عناصرها بالازدياد التدريجى ، لحصلنا بينها على هذا الترتيب التصاعدى نفسه ، إذ نرى كل واحد منها يحتوى ما قبله ويزيد عليه عنصراً جديداً : فالحياة النباتية تستلزم وجود الجسم بأجزائه ، وجزئياته ، وعناصره ، وذَرَّاته ، وطاقاته ، وتزيد عليه وظائف أخرى . والحياة الحيوانية تحتوى الحياة النباتية بجميع وظائفها ، وتزيد عليها . والحياة الإنسانية فيها كل الحياة الحيوانية ، وتزيد وظائف أعلى . وهذه الوظائف نفسها طبقات بعضها فوق بعض ، وأعلاها الوظيفة الروحية التى تتطلع إلى الحقيقة الكبرى .

« هذا البيان يرينا على أى وجه يمكن أن نفهم الصلة بين العلم الإلهى (علم الدين) وسائر العلوم (طبيعية ، أو رياضية ، أو فلكية ، أو نفسية ، أو اقتصادية ، أو منطقية ، أو اجتماعية ، أو تاريخية ، أو لُغوية ، أو غيرها) ، وأنها ليست صلة وحدة فى الموضوع ، ولا اشتراك فى الأهداف ، إذ مهما تعالج هذه العلوم من مشاكل ، فليس واحد منها يتصدَّى لعلاج المشكلة الكبرى التى انتهض الدين

لحلها . إنها كلها تبحث عن الكائنات ، وليس شىء منها يبحث عن مبدئها الأول وغايتها القصوى . غير أنها كلها تستطيع أن تزجى لهذا المطلب خدمة ما . من قريب أو بعيد ، ولن يستغنى الدين عن العلوم إلا لو استغنت المقاصد عن وسائلها ومقدماتها ، أو الدعاوى عن حججها وبيِّناتها ، فكما أن المجهول لا يُتوصل إليه إلا عن طريق المعلوم ، والغائب لا يُدرك إلا على ضرب من القياس على الشاهد ، كذلك الحقائق العليا لا يسهل الصعود إليها إلا على سلم من حقائق الدنيا .

« فإن بعدت صلة بعض العلوم بالدين ، وعجزت عن أن تقدِّم له مَدَداً إيجابياً ملموساً ، فإنها - بما تبدِّد من ظلمات الأوهام . وبما تبعث من النور فى جوانب النفس - تقوم بوظيفة تطهير وتنقية ، لا بد منها لتهيئة جو عقلى صالح لاعتناق العقائد السليمة ، حتى إذا ركن القلب إلى شىء كان ركونه إليه على بصيرة وبيِّنة ، لا مدفوعاً بحمية الجهل ، ولا منقاداً بسذاجة المحاكاة : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

---

(١) الزمر : ٩

« ومهما يكن من أمر ؛ فالمعقول أنه إن لم يكن بين العلم والدين تعاون من قريب ولا بعيد ، كان بينهما على الأقل من التفاهم وحُسْن التجاور ما بين فروع الصناعات المختلفة ، إذ ليس يُعقل أن يكون هناك تعارض وتناقض بين أمرين لا اشتراك بينهما فى موضوع واحد .

* *

● تفسير المصادمات التى وقعت بين العلم والدين :

« وهنا يحق لنا السؤال عن تفسير تلك المصادمات العنيفة ، التى ظهرت فى التاريخ غير مرة ، بين العلوم والأديان . لا نعنى ذلك الصراع الصورى الذى يُسْتَغل فيه اسم العلم أو الدين أحياناً ، ليكون ستاراً للمقاصد الخفية ، والمطامح المختلفة ، من الثروة ، والنفوذ ، والجاه ، وسائر المصالح العاجلة ، كما لا نعنى الصراع الحقيقى الدائم بين النزعات الروحية السامية ، التى تدفع إلى التضحية وضبط النفس والاعتدال ، وبين النزعات المادية المضادة التى تهدف إلى الفوضى والإباحة والاستئثار . وإنما نطلب تفسير تلك المعارضة الفكرية التى تقع بحُسْن نية بين

المعسكرين العلمى والدينى ، فيقف كل واحد منهما موقف التكذيب والإنكار لما عند الآخر .

« والجواب أن هذه المعارضة تحدث - فيما نعلم - على إحدى صورتين :

« الصورة الأولى : أن يقف أحد الطرفين موقف المعارضة لما عند الآخر جملة ، لا بناء على حُجَّة تدحضه ، أو شُبهة تضعفه ، بل عفواً واعتباطاً ، أو لمجرد جهله به ، ظناً منه أن كل ما لم يدخل فى دائرة علمه فى الحال فليست له حقيقة . وهذا لعمرى من قصر النظر ، بل من الجهل والغرور ، فإن التكذيب بما لم يحط الإنسان بعلمه ولم يأته تأويله ، خطأ لا يرتكبه الراسخون فى العلم والدين ، وإنما يقع فيه المغرورون من العامة أو « أنصاف المتعلمين » ، وهؤلاء أشد خطراً من الجهلاء ، لأن علمهم فى الحقيقة جهل مركَّب ، وإنما الإنصاف أن يكون كل امرىءٍ عارفاً بقدر نفسه ، واقفاً عند حده ، بنَّاءً غير هدَّام .

والسبيل القاصد فى ذلك أن يثبت كل فريق ما وصل إليه ، ولا ينكر ما لم يصل إليه .

« وقد رأينا العلماء المتخصصين فى فرع من العلوم الطبيعية أو العقلية يعتمدون النتائج التى وصل إليها المتخصصون فى فرع آخر منها - كل فى نطاق تخصصه - ولا ينتظرون أن يعيدوا كلهم ما جرَّبه أو برهنه بعضهم ، وهذا هو الوضع السليم الذى تتقدم به المعارف الإنسانية ، إذ لو وجب أن يعيد كل عالِم بحث كل مسألة بنفسه ، لما تقدَّمت العلوم خطوة واحدة .

« وكذلك ينبغى أن يكون الشأن بين حَمَلَة العلوم وحَمَلَة الأديان . .

« ألم يُجْمِع العلماء الآن على إمكان تحطيم النواة الذَرِّية ، واستخدام طاقتها الجبَّارة فى صنع الأعاجيب ، مع أنه لم يباشر هذه التجربة منهم إلا نفر قليل ؟ فماذا يمنعنا أن نؤمن بالتجارب الروحية المتكررة التى شهدها الأنبياء وأرباب البصائر النيِّرة فى مختلف العصور ، وإن لم يشهد الناس منها إلا نتائجها الخارقة ؟

« إنه إذا كان من واجب الأديان أن تهادن العلوم ولا تنابذها ، وكان من الخير لها أن تستثمر كافة المعارف البَشرية وتتسلح بنتائجها ، فإن من الخير للعلوم كذلك أن تدع الأديان تكمل ما فيها من نقص ، وتملأ ما تتركه فى النفوس من فراغ ، بما يملؤه من الحقائق الروحية ، فإن لم تفعل فلا أقل من أن تلتزم شقة حياد ، فلا تعادى الأديان ولا تنكرها جملة ، فإن إنكار الدين جملة إنكار ضمنى لأُمور واقعية ، تحتويها الأديان كلها ، ولا يحتويها علم من العلوم ، ألا وهى عناصر الإيمان بالحقيقة العليا وتقديسها وعبادتها .. معان هى من مادة الحياة التى قد يفسِّرها العلم ، ولكنه لا يخلقها ، وقد ينقب عن أطوارها ويتفهم نشأتها ، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل وجودها ، أو يدَّعى لنفسه أنه يحل محلها » .

« الصورة الثانية : أن تكون هناك مسألة أو مسائل معيَّنة تنطق فيها العلوم والأديان بحكمين متناقضين . وإنما يحدث ذلك حينما تتناول الأديان إلى جانب عنصرها الروحى شيئاً من موضوعات العلوم وحقائق المشاهدات ، وتذهب فى

ذلك مذهباً معيَّناً ، تفرضه على المتدينين بها فرضاً . فهذا الجانب وإن كان عَرَضياً فى الأديان ، وكان سبيله فى الغالب سبيل الوسائل لا المقاصد ، إلا أنه يُعَد معياراً لمقدار ما فى كل دين من صحة أو فساد ، على قدر اتفاقه مع مقررات العلم الصحيح وقضايا العقل السليم ، أو اختلافه معها ، فإنه إذا كان الدين حقاً ، والعلم حقاً ، وجب أن يتصادقا ويتناصرا . أما إذا تكاذبا وتخاذلا فإن أحدهما لا محالة يكون باطلاً وضلالاً » [1] .

ومصداق ذلك أن الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى عندهم تبنَّت نظريات وآراء معيَّنة فى الفلك والفيزياء والجغرافيا وغيرها من العلوم ، وأضفت على هذه الآراء لوناً من القداسة الدينية ، وأصبحت جزءاً من معتقداتها ، التى يشب عليها الصغير ويهرم عليها الكبير . . فلما بزغ فجر النهضة العلمية فى أوروبا ، على أيدى جماعة من علمائهم ومفكريهم الأحرار - الذين تأثروا بالمنهج العلمى

---

(١) « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٧٤ - ٧٨

الذى كان معروفاً فى العالَم الإسلامى - اصطدمت أفكارهم ومكتشفاتهم اصطداماً مباشراً بتلك النظريات المقدَّسة . وكان النزاع المرير المعروف فى الغرب بين العلم والدين [1] .

* *

• دور الدين لم ينته ولن ينتهى :

بقى ما يقال من أن الدين قد انتهى دوره ، وأخلى مكانه للعلم الحديث : ما مدى صحة هذا الزعم ؟ وهل يمثل حقيقة علمية أو منطقية أو واقعية ؟

والذى نجيب به مطمئنين كل الاطمئنان : أن هذا الزعم غير صحيح على الإطلاق ، فالدين ليس شيئاً طارئاً على الإنسان ، ولا امرأ على هامش الحياة ، بحيث يُستطاع اطراحه والاستغناء عنه فى عصر من الأعصار .

* * *

---

(١) انظر فى ذلك كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » للأستاذ الإمام محمد عبده .



مناقشة نظرية « أوچست كومت »

ولقد جاء زمن راجت فيه لدى بعض الناس نظرية « الأدوار الثلاثة » التى ذهب إليها الفيلسوف الفرنسى « أوچست كومت » - مؤسس المدرسة الوضعية التقليدية (١٧٩٨ - ١٨٥٧) - وتتلخص فى أن العقل الإنسانى قد مَرَّ بمراحل أو أدوار ثلاثة ، هى : الدور اللاهوتى أو الدينى ، والدور الميتافيزيقى أو التجريدى ، والدور الواقعى أو الوضعى - وهو الدور العلمى - وهذا هو ما يسمى « قانون الدَوْرة الثلاثية » .

فى الدور الأول كان العقل يبحث فى كُنْه الموجودات وأصلها ومصيرها .. معتمداً على الخيال .. فالظواهر تحدث بفعل كائنات غير منظورة تختفى وراء الطبيعة المنظورة ، كالآلهة والشياطين .

وفى الدور الميتافيزيقى ارتقى العقل ، فتخلَّى عن الكائنات غير المرئية ، ليردّ الظواهر إلى علل مجرَّدة خفية ، يتوهمها فى باطن الأشياء ، وهى معان مجرَّدة ، وبذلك أحل « المجرَّد » محل « المشخَّص » ، ووضع الاستدلال

موضع الخيال . أما الملاحظة والمشاهدة فتحتل فيه مكاناً ثانوياً .

وفى الدور الثالث - الواقعى - يتجنب العقل البحث عن أصل الكون ومصيره ، وعلله الخفية رأساً ، ولا يهتم إلا بمعرفة الظواهر واكتشاف قوانينها ، والعلاقات المطردة بينها ، ويقيمها على أساس من الملاحظة والتجربة ، لا من الخيال ، ولا من الاستدلال . وبهذا يهتم العلم بالإجابة عن السؤال : كيف حدث الشيء ؟ وليس عن السؤال : لماذا حدث ؟ (١) .

وعلى هذا يكون طَوْر التفكير الدينى .. يمثل - فى نظر كومت - مرحلة الطفولة للعقلية الإنسانية .. على حين يمثل طَوْر الفلسفة الميتافيزيقية مرحلة المراهقة ..

أما طَوْر العلم التجريبى فيمثل مرحلة الكهولة والرشد ، إذ ما عدا قضايا العلم الواقعى الحِسِّى لا يعدو أن يكون خيالاً أو كلاماً فى كلام .

---

(١) انظر : أُسس الفلسفة ، للدكتور توفيق الطويل ص ١٩٤ ، ١٩٥ - الطبعة الثالثة .

ويعبِّر عن ذلك فيلسوف ألمانى تأثر بـ « كومت » وهو « لودفيج فويرباخ » (١٨٠٤ - ١٨٧٢) فيقول :

« الله كان فكرتى الأولى . . والعقل كان فكرتى الثانية . . والإنسان - بمحيطه الواقعى - هو فكرتى الثالثة والأخيرة » (١) .

هذه هى النظرية التى لا زال بعض الكاتبين فى ديارنا يرددونها ، ويتشبثون بها ، معلنين - فى تعالم وغرور - أنّ عهد « الغيبيات » قد طويت أعلامه ، بعد أن قامت دولة العلم ، وسقطت كل قضية لا يمكن اختبارها فى المعمل ! هذا مع أن المفكرين والنُقَّاد - فى الغرب ذاته - قد بيَّنوا زيف هذه النظرية الوهمية وبطلانها ، وأتوا على بنيانها من القواعد .

ومن أبرز الأدلة على بطلان هذه النظرية ما يلى :

إن « كومت » وأنصاره جعلوا من نظريته قانوناً يستوعب

---

(١) انظر : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، للدكتور محمد البهى ص ٢٨١ - الطبعة الثانية .

التاريخ كله فى شوط واحد ، قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل ، ونفضت - أو كادت تنفض - يدها منهما إلى غير رجعة ، فلن تعود إليهما إلا أن يعود الكهل إلى شبابه وطفولته .

ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية ، كلما ختمت البَشرية شوطاً ، رجعت عَوْداً ، لكان الخطأ فى هذه النظرية أقل شناعة [1] ، وربما كان « تاريخ المعرفة » فى الغرب يؤيد ذلك .

« فقد كانت معرفة الإنسان قبل تفلسف الإغريق ذات طابع دينى . . ثم أصبحت على عهد « سقراط » و« أفلاطون » عقلية . . ثم مالت بعد ذلك على عهد « أرسطو » إلى التجربة والواقع .

« ثم ابتدأت تجربة أُخرى من جديد ، فاعتبر الدين فى القرون الوسطى مصدراً للمعرفة . . ثم جعل للعقل اعتباره - بدلاً من الدين - فى عصر التنوير فى القرن الثامن عشر . . ثم قوى الميل إلى اعتبار المعرفة الحِسِّية

---

(١) انظر : الدين ، للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٤ ، ٨٥

أو الوضعية وحدها - دون العقل والدين معاً - فى القرن التاسع عشر .

« هذه دَوْرة ثلاثية لـ « اعتبار المعرفة » فى تاريخ الإنسانية . فإذا كانت هذه الدَوْرة الثلاثية قانوناً لا يتخلف للمعرفة ، أو بالأحرى لاعتبار مصدر المعرفة ، فالمنتظر - بناء على سير التاريخ - أن يعود الاعتبار إلى الدين من جديد ، بعد أن قويت موجة الواقعية أو الوضعية فى القرن التاسع عشر . فتنكسر حدتها ، فتضعف ، فيقل اعتبارها ، وعندئذ يعود الاعتبار فى المعرفة للدين وحده » - كما قال أستاذنا الدكتور محمد البهى فى كتابه القيم « الفكر الإسلامى الحديث » [١] .

هذا هو منطق التاريخ الذى استخدمه « كومت » نفسه ، ولكنه لم يستخدمه بإنصاف وتجرد وموضوعية كما هو منطق « العلمية » الذى ينادى به ، بل كان فى أكثره - كما

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ، للدكتور محمد البهى ص ٣٢٤ - ٣٢٥ - الطبعة الثانية . دار القلم - القاهرة .

يقول الأستاذ « فندلبند » فى كتابه « تاريخ الفلسفة » - يقوم على الهوى ، وعدم المعرفة ، والحكم المغرض [١] .

وهذا الذى ذكرناه مبنى على افتراضنا التسليم بوجود أدوار تاريخية ثلاثة متعاقبة . والحقيقة أن هذه دعوى لم يقم عليها برهان صحيح ، بل هى - فى اعتمادها على التاريخ - تحرِّف التاريخ ، وفى ادعائها الاعتماد على الواقع ، تصادم الواقع .

وماذا يقول فيلسوف الوضعية فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، وفيه نرى الدين والعقل والعلم ، تنمو وتزدهر وترتقى كلها جنباً إلى جنب ، فتجد الفقهاء والمفسِّرين والمحدِّثين والمتصوِّفة ، وبجوارهم الفلاسفة والمتكلمين ، وإلى جانبهم العلماء من الأطباء والكيميائيين والفلكيين والفيزيائيين والرياضيين .

بل ربما تجد الشخص الواحد يجمع النواحى الثلاثة فى شخصه ، كما يتضح ذلك فى سيرة ابن رشد الحفيد ،

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٣

صاحب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » فى الفقه الإسلامى المقارن ، وأكبر شارح لفلسفة « أرسطو » فى تلك العصور ، وصاحب كتاب « الكليات » فى الطب .

وكثير من علماء المسلمين التجريبيين كانوا فقهاء ومتصوِّفة .

وهذا ما وقع ويقع فى تاريخ الأُمم كافة ، إلى اليوم .

فنحن ما زلنا نسمع ونرى فى كل عصر فريقاً يُقدِّس الروحانيات ، وآخر مشغوفاً بالمعقولات الكلية والنظرة التجريدية ، وغيرهما لا يعنى إلا بالحوادث الجزئية ومعرفة ما بينها من ترابط وجودى .

والملحوظ أن الدور الأول - الذى يقولون إنه يتمثل فى عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخى - قد اخترعت فيه صناعات عن طريق المشاهدة ومعرفة طبائع الأشياء . . .

وفى الدور الفلسفي - الذى يقال إنه شمل العصور القديمة - قد وُجِدت فيه مشاهدات فلكية ومدنيات شرقية ، وعُرِفت هندسة « إقليدس » ، وطب « أبقراط » ، وطبيعيات

« أرسطو » ، وكيمياء العرب وفلكهم وطبهم وسائر علومهم التجريبية (كما ذكر لوبون وبريفولت وغيرهما) .

وفى الدور الوضعى - الذى هو طابع العصور الحديثة فيما يقولون - توجد كثرة غفيرة من دعاة الدين والقِيَم الأخلاقية والتأمل الفلسفى [١] .

بل نرى كثيراً من رجال العلم التجريبى - نفسه - وأقطابه فى القرن العشرين يؤيدون - بأسلوب علمى - حقائق الدين وينادون فى صدق واقتناع بوجوب العودة إلى الإيمان .

ونذكر من هؤلاء الأستاذ « كريس موريسون » رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك وصاحب كتاب « الإنسان لا يقوم وحده » المعرَّب تحت عنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » .

ومنهم عالِم النفس التجريبى الدكتور « هنرى لنك » صاحب كتاب « العودة إلى الإيمان » الذى طُبِع حوالى خمسين مرة فى أمريكا وحدها :

---

(١) أسس الفلسفة ص ٢٠٩

ومنهم ثلاثون عالِماً أمريكياً فى مختلف الاختصاصات ، كتب كل واحد منهم مقالة يبيِّن بها كيف عرف الله واهتدى إليه بوساطة علمه . ومن هذه المقالات تكوَّن كتاب « الله يتجلَّى فى عصر العلم » الذى نُقِل أيضاً إلى العربية .

فالواقع أن الحالات الثلاث التى يصوِّرها « كومت » لا تمثل أدواراً تاريخية متعاقبة ، بل تمثل نزعات وتيَّارات متعاصرة فى كل الشعوب ، وليست متناقضة ولا متضادة بحيث إذا وُجِدت إحداها تنتفى الأُخرى .

بل نقول ما قال أستاذنا المرحوم الدكتور دراز : « إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة فى نفس كل فرد ، وإن لها وظائف يكمل بعضها بعضاً فى إقامة الحياة الإنسانية على وجهها ، ولكل واحدة منها مجال يوائمها . ففى الوقت الذى نفسِّر فيه الحوادث بأسبابها المباشرة خارجية وداخلية ، فنقول : هلك فلان بضربة سيف ، أو لشيخوخة أو لمرض ، لا يزال كل واحد منا نفسِّر الحوادث الشاذة

الخارقة بالقضاء والقَدَر ، أو بسبب غيبى مجهول »[(١)] -
أى مع إيمانه بالعلم الوضعى الواقعى .

إن المعرفة العلمية الواقعية القائمة على تتبع الجزئيات وتسجيل الظواهر والعلاقات بينها ، ليست هى قمة المعرفة الإنسانية ، ولا غاية النضج البَشرى .

فإن المعرفة العلمية التجريبية نفسها تحتاج إلى أساس فلسفي ، فإن الفلسفة - بمعنى النظر فى العلل والكليات وما وراء الظواهر والجزئيات - هى التى تقوم بتفسير الملاحظة والتجربة وغيرها من مقوِّمات العلم .. بل إن العلم نفسه ليس إلا حقيقة من الحقائق التى تعالجها الفلسفة فى نظرية المعرفة : كيف يكون العلم ممكناً ، وتحت أى ظروف نتصور هذا العلم ، وما أدوات العلم وما طبيعته ؟ .. إلخ ،

---

(١) الدين : للدكتور محمد عبد الله دراز - مطابع دار الكتب - بيروت . ص ٨٥ - ٨٦ ، وانظر : أُسس الفلسفة : للدكتور الطويل ص ٢٠٨ - ٢٠٩

أى إننا نحتاج إلى « علم العلم » : إلى تحليل العقل وقوانينه . وهذه كلها موضوعات تدخل فى مجال ما بعد الطبيعة [1] .

ومن هنا يقرر المرحوم الدكتور دراز [2] أن الأمر على عكس ما ذهب إليه « كومت » تماماً : أن النظرة الواقعية تقع فى مبدأ الطريق لا فى نهايته ، وأنها تمثل مرحلة الطفولة النفسية ، لا مرحلة النضج والكمال ، ذلك بأن مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية ، وبأنها وظيفة الحس لا العقل ، وبأنها من معدن القابلية والانفعال ، لا من معدن الفاعلية والإنشاء .

أما نظرة التعليل بالمعانى العامة فإنها تنبثق فى النفس على أثر ذلك ، متى استيقظت ملكتا التجريد والتعميم فى التصورات والأحكام ، فلا يكتفى الذهن حينئذ بجمع الحوادث المترابطة فى سلسلة متعاقبة ، كما تُجْمَع الأعواد فى الحزمة ، بل يحاول ربطها برباط معنوى تدور فى فلكه ، ويكون كالسلك الداخلى الذى ينتظم حبّات العِقد .

---

(١) انظر : أسس الفلسفة ص ٢٠٧ - ٢٠٩

(٢) « الدين » ص ٧٦ - ٨٧

ونؤكد أن المعارف الإنسانية لا تستحق اسم العلم حتى تأخذ بنصيب قليل أو كثير من هذا التجريد والتعميم ، الذى يضع كل مجموعة فى نطاق يضبطها ، تحت لقب مشترك يسهل به استحضارها ويكون لها بمثابة قانون كُلِّى تعلل به جزئياتها ، بل العلوم الواقعية تسعى الآن جاهدة للاندماج برمتها فى منظمة تنسقها وتُخضع جميع ظواهرها لناموس واحد ، وهذا هو ما يسمى بمبدأ « وحدة الوجود » بمعناه العلمى (Monism Scientifique) ، وسواء أبلغت العلوم هذا الهدف قريباً أو بعيداً أم لم تبلغه أبداً ، فالذى لا شك فيه هو أن هذه النزعة إلى استنباط المعانى الكلية لم تفتر بل تزداد قوة .

بقيت النظرة الروحية أو الدينية ، وواضح أنها لا تولد فى النفس إلا حينما يتسع أُفقها . فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه ، فهى أوسع النظرات مجالاً ، وأبعدها مطلباً .

وهكذا ينقلب الترتيب الذى تخيَّله الفيلسوف رأساً على عقب ، وتعود الحاجات النفسية الثلاث إلى أوضاعها

الطبيعية المعقولة : حاجة الحس ، فحاجة العقل ، فحاجة الروح . . وإن شئت قلت : حاجة الحس ، فحاجة العقل القانع ، فحاجة العقل المتسامى .

« على أن الذى يعنينا هنا ليس هو الوضع التقويمى لكل واحدة من هذه النزعات ، وإنما هو دخولها جميعاً فى كيان النفس الإنسانية . فكما إننا لا نجد أمارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو النزعة التعليلية ، كذلك لا نرى أمارة واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان ! يقول الفيلسوف الفرنسى « سالمون ريناك » : « ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب ، بل لنا أن نكون على يقين من أنه سيبقى شىء منها أبداً . ذلك لأنه سيبقى فى الكون دائماً أسرار ومجاهيل ، ولأن العلم لن يحقق مهمته على وجه الكمال » [١] .

ويقول الدكتور « ماكس نوردوه » عن الشعور الدينى :

---

(١) انظر : الدين ص ٨٧

« هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين ، كما يجده أعلى الناس تفكيراً ، وأعظمهم حدساً ، وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية ، وستتطور بتطورها ، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التى تبلغها الجماعة » [١] .

ويقول « أرنست رينان » فى « تاريخ الأديان » : « إن من الممكن أن يضمحلّ كل شىء نحبه ، وأن نبطل استعمال العقل والعلم والصناعة . ولكن يستحيل أن ينمحى التدين ، بل سيبقى حُجَّة ناطقة على بطلان المذهب المادى ، الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية » [٢] .

* * *

---

(١) راجع : مادة « دين » فى « دائرة معارف القرن العشرين » للمرحوم محمد فريد وجدى .

(٢) المصدر السابق .

ملاحظة جديرة بالتنبيه

بقيت هنا ملاحظة جديرة بالتنبيه والتسجيل . وهى : أن إيمان « أوجست كومت » وأنصاره وأمثاله بالعلم وحده ، ورفضهم للأفكار التى تأتى عن طريق « الفلسفة » و« الدين » إذا حللّنا دوافعه وظروفه التاريخية إنما يعنى فى الحقيقة أمرين :

● رفض تخرصات الفلسفة الميتافيزيقية :

الأول : رفض تخرصات الفلسفة الميتافيزيقية وتناقضاتها .

الفلسفة التى تطلب لنفسها الثقة والاعتبار العام فيما تذكره من أفكار وآراء عن الوجود ، وهى التى شرَّق فلاسفتها وغرَّبوا ، وبحثوا فى كل شىء ولم يكادوا يتفقون على شىء . وهذه - فى الواقع - هى حدود طاقة العقل البَشرى ، إذا سلك هذه المفازة - ما وراء الطبيعة - وحده ، دون دليل من هَدْى الله ووحيه المعصوم .

وهذا ما جعل الفيلسوف الألمانى الكبير « كانت » يُشبِّه العبارات « الميتافيزيقية » بأنها : « ورق نقد بدون ضمان »

وذلك ليبيِّن أن صنعة العقل الإنسانى فيما بعد الطبيعة لا تأتى بيقين حقيقى ، لأن العقل - إذا اجتاز مرحلة الإنسان ودائرته الحِسِّية إلى دائرة فوقها أعلى منها - لم يستطع أن يأتى إلاَّ بالظن والتخمين . فالعقل - بحكم أنه محدد بالبيئة والمكان والزمان والثقافة الخاصة والجو الطبيعى والاجتماعى والسياسى - لا يملك أن يأتى بيقين عن الوجود المطلق غير المحدد بالمكان أو الزمان أو بشىء مما يُحدَّد به الإنسان [1] . فالموجود المحدود لا يستطيع أن يتصور غير المحدود ، وكل ما يفعله أن يقيس وجوده على وجود نفسه ، وذلك ظن ، وليس بيقين . بل هو فى الحقيقة قياس فاسد ، إذ ليس ثمت جامع مشترك بين المقيس والمقيس عليه .

وما انتهى إليه « كانت » هو نفس ما انتهى إليه - أو إلى ما يشبهه أو يقرب منه - كثير من الفلاسفة والمفكرين قديماً وحديثاً ، وهو الجانب الذى أطلق عليه المفكر العربى المعاصر الدكتور زكى نجيب محمود : « خرافة الميتافيزيقا » !!

بل إن هذا يشبه ما انتهى إليه جماعة من أئمة علم

---

(١) انظر : الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

الكلام من المسلمين الذين خاضوا لجج العلوم العقلية ، فلم يظفروا منها بطائل ، حتى إن بعضهم تمنى فى ختام عمره إيماناً كإيمان العجائز ! [١] .

ومن أجل هذا قال أحد أساتذة الفلسفة [٢] : إن الفلسفة لا رأى لها ، وذلك لأنها فى مسائل ما وراء الطبيعة وما شابهها من القضايا الكبرى ، تقول الشىء وضده ، وتصدر الحكم ونقيضه ، يعنى : أن ما يقوله فيلسوف ينقضه آخر ، وما يبيِّنه واحد يأتى آخر فى عصره أو بعده فيهدمه من أساسه . وبهذا لا تستطيع الفلسفة البَشرية أن تعطى رأياً واحداً محدداً فى قضية كبرى ، فلا غرو أن يكون الوضعيون معذورين فى موقفهم من الفلسفة الميتافيزيقية . وهذا هو وضعها .

* *

---

(١) انظر : أقسام اللّذات : للفخر الرازى ، والعقيدة النظامية : لإمام الحرمين الجوينى .

(٢) هو الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة بجامعة الأزهر وعميد كلية أصول الدين (ثم وكيل الأزهر فوزير الأوقاف وشئون الأزهر ، فشيخ الأزهر أخيراً) .

● المراد بالدين « دين الكنيسة الغربية » :

الأمر الثانى : إن رفض الدين والتنديد به إنما يراد به : دين الكنيسة الغربية حينذاك ، وما تتبناه من أفكار يرفضها العقل ، وينكرها العلم .. وهذا ما جعل عدداً من الفلاسفة يؤمنون بالله وبالدين ، وينكرون - فى الوقت نفسه - المسيحية ، مسيحية البابا والكنيسة والكَهَنة [1] .

وليس أدل على هذه الحقيقة من أن زعيم المذهب

---

(١) انظر : الفلسفة الخُلُقية .. نشأتها وتطورها ، للدكتور توفيق الطويل - الطبعة الثانية ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، وفيه : أن « كومت » - رغم إعجابه بدعوة المسيحية إلى الإيثار والمحبة ومساعدة الضعفاء - أخذ عليها أنها جمدت والعالَم يجرى فى رِكاب العلم ، إذ ارتبطت بالكاثوليكية التى تعثَّرت فى مسايرة التقدم العقلى ، ومتابعة ما تقتضيه مناهج البحث العلمى . ثم ما لبثت أن جمدت وتصدَّت - دفاعاً عن وجودها - لمقاومة التقدم وعرقلة سيره . ومن هنا نشأ النزاع الذى أتى على الأخلاق المسيحية ، فراحت هذه ضحية الروح الكاثوليكية وجمودها . ومن أجل هذا انصرف « كومت » عن اتخاذ المسيحية أساساً للأخلاق الجديدة ، وتطلَّع إلى إقامتها على أُسس علمية وضعية .

الوضعي الواقعي - أوچست كومت - نفسه ، الذى كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتمية لتقدم العلوم ، قد عاد فى آخر أمره متصوِّفاً عجيباً ! وكلَّل حياته بوضع ديانة جديدة ، معبودها الأكبر هو : « الإنسانية » . وقد طبع هذه الديانة على غرار النظام الكَنسي للكاثوليكية ، فى عقائدها ، وطقوسها ، وأعيادها ، وطبقات قساوستها . رواية كاملة أعاد فصولها ولم يغيِّر إلا أشخاصها !! [1] .

ولعلّ « كومت » وكبار مدرسته لو عرفوا حقيقة دين كالإسلام ، اتسمت تصوراته وأخلاقه وأنظمته بالشمول والتوازن والإيجابية والواقعية ، وفسح المجال للعقل والعلم إلى أبعد مدى ، ما وجد نفسه محتاجاً إلى اختراع دين جديد ، ولوجد فى الإسلام ما ينشده وفوق ما ينشده [2] .

---

(١) انظر : الدين ، للدكتور دراز ص ٩٤

(٢) قلت هذا عن « أوچست كومت » ونشرته منذ سنوات ، ولم أكن أعلم أن الرجل قرأ عن الإسلام بعض الشيء ، واعترف له بالعلمية والواقعية ، وهذا ما سجَّله المفكر العربى المسلم الدكتور رشدى فكَّار فى بعض بحوثه .

ومهما يكن الأمر ، فإن موقف « كومت » آخراً لشهادة ناطقة على أن الدين لم ينته دوره كما زعم ، ولن ينتهى دوره ما بقى الإنسان .

فالدين جزء أصيل من فِطرة الإنسان ، وحاجة بَشرية حقيقية لا غِنى عنها . وربما أمكن الإنسان أن يستغنى عن العلم ، كالبدائيين من البَشر ، ولكن لم نر جماعة فى مكان ما أو زمان ما ، استغنت عن الدين .

وقد نجد من الناس مَن يتمرد على الدين ، ويثور على التدين ، ولكنه فى الواقع إنما يتمرد على الزيف والتحريف فى الدين ، إنما يثور على دين وضعى أو دين محرَّف منسوخ ، كما وجدنا طبيب النفس الأمريكى الشهير الدكتور « هنرى لنك » ، مؤلف كتاب « العودة إلى الإيمان » الذى ثار على الكنيسة الغربية ، ثم رجع إلى الدين بعد تجارب ومشاهدات ردَّته إلى رحابه ، ولكنه فى الواقع لم يعد إلى دينه القديم ، كما حدَّثنا هو عن نفسه ، بل عاد إلى

دين فِطرى هو عند التحليل أقرب ما يكون إلى عقيدة الإسلام (١) .

فمن الخطل البيِّن القول بأن الدين قد ولَّى الأدبار ، أو أصبح فى خبر كان . فربما صَحَّ هذا القول بالنظر إلى أوروبا فى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر . أما القرن العشرين ، فيسوده اتجاه قوى للعودة إلى الإيمان ، والرجوع إلى القيم الروحية ، والهداية الإلهية التى جاء بها رُسُل الله .

إننا نرى رجلاً مثل « توينبى » - أكبر مؤرخى هذا العصر وأحد أقطاب الفكر العالمى - يقول عن نفسه : إنه من المؤمنين بأن الدين هو أهم ما فى الوجود (٢) .

ويقول : « الدين إحدى المَلَكات الضرورية الطبيعية البَشرية . وحسبنا القول بأن افتقار المرء إلى الدين يدفعه

---

(١) انظر : كتابنا « الإيمان والحياة » فصل « بين العلم والإيمان » . وخصوصاً ما كتب تحت عنوان « الطب النفسى فى موكب الإيمان » .

(٢) مختصر دراسة للتاريخ : ٣/ ١٧٣

إلى حالة من اليأس الروحى ، تضطره إلى التماس العزاء الدينى على موائد لا نملك منها شيئاً » (١) .

ونجد كاتباً مطلعاً على الفكر العالَمى واتجاهاته المعاصرة مثل المرحوم عباس محمود العقاد ، يحدِّثنا عن جمٍّ غفير من أنصار الإيمان ، ودعاة الروح فى كتابه « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » .

وفى كتاب « الله يتجلَّى فى عصر العلم » نجد ثلاثين عالِماً أمريكياً فى شتَّى تخصصات العلوم الكونية والرياضية وغيرها ، يكتبون - من خلال علومهم - مؤيدين للإيمان .

وينقل أحد هؤلاء عن العالِم الطبيعى والكاتب اللامع « أوليفر وندل » قوله : « كلما تقدَّمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف ، فالفهم الحقيقى للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله » (٢) .



---

(١) نفس المصدر : ٣/ ١٧٩

(٢) « الله يتجلى فى عصر العلم » ص ٥٢

حاجة الإنسان إلى الدين

إن حاجة الإنسان إلى الدين ليست حاجة ثانوية ولا هامشية ، إنها حاجة أساسية أصيلة ، تتصل بجوهر الحياة ، وسر الوجود ، وأعمق أعماق الإنسان .

وفى أقصى ما يمكن من الإيجاز - غير المخل - نبين هنا وجه الحاجة إلى الدين فى حياة الإنسان :

● حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى فى الوجود :

١ - حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق - أول ما تنبثق - من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله . أى إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التى شغلت بها فلسفات البَشر ولم تقل فيها ما يشفى .

فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولِمَ ؟! ومهما تشغله مطالب العيش من هذا التساؤل ، فإنه لا بد واقف يوماً ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة :

(أ) يقول الإنسان فى نفسه : من أين جئتُ وجاء هذا الكون العريض من حولى ؟ هل وُجِدتُ وحدى أم هناك خالق أوجدنى ؟ ومَن هو ؟ وما صلتى به ؟ وكذلك هذا العالَم الكبير بأرضه وسمائه ، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه . هل وُجِد وحده أم أوجده خالق مُدبِّر ؟

(ب) ثم ماذا بعد هذه الحياة . . وبعد الموت ؟ إلى أين المسير بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضى ؟ أتكون قصة الحياة مجرد « أرحام تدفع ، وأرض تبلع » ولا شىء بعد ذلك ؟ وكيف تستوى نهاية الأخيار الطاهرين الذين ضَحّوا بأنفسهم فى سبيل الحق والخير ونهاية الأشرار الملوثين الذين ضَحّوا بغيرهم فى سبيل الهوى والشهوة ؟ أتختتم الحياة بالموت ؟ . . أم هناك وراء الموت حياة يُجزَى فيها الذين أساءوا بما عملوا والذين أحسنوا بالحُسْنى ؟

(جـ) ثم لماذا وُجِد الإنسان ؟ لماذا أُعطى العقل والإرادة وتميَّز عن سائر الحيوان ؟ لماذا سُخِّر له ما فى السموات وما فى الأرض ؟ أهناك غاية من وجوده ؟ أله مهمة فى

حياته ؟ أم وُجِد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام - ثم ينفق كما تنفق الدواب ؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هي ؟ وكيف يعرفها ؟

أسئلة تلح على الإنسان في كل عصر ، وتتطلب الجواب الذي يشفي الغليل ويطمئن به القلب ، ولا سبيل إلى الجواب الشافي إلا باللُّجوء إلى الدين .. إلى العقيدة الدينية الصافية . الدين هو الذي يُعرِّف الإنسان - أول ما يعرِّفه - أنه لم يخرج من العدم إلى الوجود صدفة ، ولا قام في هذا الكون وحده ، وإنما هو مخلوق لخالق عظيم ، هو ربه الذي خلقه فسوَّاه فعدله ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وأمدَّه بنعمه الغامرة ، منذ كان جنيناً في بطن أمه : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ (١) .

وهذا الكون الكبير من حوله ليس غريباً عنه ولا عدواً له . إنه مخلوق مثله لله لا يسير جزافاً ولا يمشي اعتباطاً ،

---

(١) المرسلات : ٢٠ - ٢٣

كل شيء فيه بقَدَر ، وكل أمر فيه بحساب وميزان . إنه نعمة من الله للإنسان ورحمة . ينعم بخيراته ، ويستفيد من بركاته ، ويتأمل فى آياته ، فيستدل به عن ربه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (١) . ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

بهذه العقيدة يرتبط الإنسان بالوجود الكبير ، وبرب الوجود كله ، ولا يعيش منطوياً على نفسه ، معزولاً عما حوله ، أو خائفاً منه .

والدين هو الذى يُعرِّف الإنسان : إلى أين يسير بعد الحياة والموت ؟ إنه يُعرِّفه أن الموت ليس فناءً محضاً ، ولا عدماً صرفاً ، إنما هو انتقال إلى مرحلة أُخرى . . إلى حياة برزخية بعدها نشأة أُخرى تُؤتَى فيها كل نفس بما كسبت ، وتخلد فيما عملت ، فلا يضيع هناك عمل عامل من ذكر أو أُنثى ، ولا يفلت من العدل الإلهى جبار

---

(١) الأعلى : ٢ - ٣ (٢) آل عمران : ١٩٠

أو مستكبر : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (١) .. بهذا يعيش الإنسان بوجدانه في الخلود ، ويعلم أنه خلق للأبد ، وإنما ينتقل بالموت من دار إلى دار .

والدين هو الذى يُعرِّف الإنسان : لماذا خُلق ؟ ولماذا كُرِّم وفُضِّل ؟ يُعرِّفه بغاية وجوده ، ومهمته فيه . إنه لم يُخلق عبثاً ، ولم يُترك سدىً ، إنه خُلق ليكون خليفة فى الأرض ، يعمرها كما أمر الله ، ويُسخِّرها لما يحب الله ، يكشف عن مكنوناتها ، ويأكل من طيباتها ، غير طاغٍ على حق غيره ، ولا ناسٍ حق ربه . وأول حقوق ربه عليه أن يعبده وحده ، ولا يُشرك به شيئاً ، وأن يعبده بما شرع على ألسنة رُسُله ، الذين بعثهم إليه هداة معلمين ، مبشرين ومنذرين ، فإذا أدَّى مهمته فى هذه الدار المحفوفة بالتكليف والابتلاء ، وجد جزاءه هناك فى الدار الآخرة : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ﴾ (٢) .

---

(١) الزلزلة : ٦ - ٨　　　(٢) آل عمران : ٣٠

بهذا يدرك الإنسان سر وجوده ، ويستبين مهمته فى الحياة ، بيَّنها له بارئ الكون ، وواهب الحياة ، وخالق الإنسان .

إن الذى يعيش بغير دين - بغير عقيدة فى الله والآخرة - إنسان شقى محروم حقاً . إنه فى نظر نفسه مخلوق حيوانى . ولا يفترق عن الحيوانات الكبيرة التى تدب على الأرض من حوله . . . والتى تعيش وتتمتع ثم تموت وتنفق ، بدون أن تعرف لها هدفاً ، أو تدرك لحياتها سراً . إنه مخلوق صغير تافه لا وزن له ولا قيمة ، وُجِد ولا يعرف كيف وُجِد ، ولا مَن أوجده ؟ ويعيش ولا يدرى لماذا يعيش ؟ ويموت ولا يعلم لماذا يموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ إنه فى شك - بل فى عمى - من أمره كله : محياه ومماته ، مبدئه ومنتهاه ، كالذين قال الله فيهم : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ (١) .

---

(١) النمل : ٦٦

وما أقسى حياة إنسان يعيش فى جحيم الشك والحيرة أو فى ظلمات العمى والجهل ، فى أخص ما يخصه : فى حقيقة نفسه ، وسر وجوده ، وغاية حياته . إنه الشقى التعيس حقاً ، وإن غرق فى الذهب والحرير وأسباب الرفاهية والنعيم ، وحمل أرقى الشهادات ، وتسلَّم أعلى الدرجات ! وفرق كبير بين إنسان كعمر الخيَّام يقول فى حال حيرته وشكه :

لبستُ ثوب العمر لم أُستشر

وحِرتُ فيه بين شتَّى الفكر !

وسوف أنضو الثوب عنى ، ولم

أدر : لماذا جئتُ ، أين المفر ؟

وبين آخر يقول فى يقين وطمأنينة :

وما الموت إلا رحلة ، غير أنها

من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

ويقول عمر بن عبد العزيز : « إننا خُلِقنا للأبد ، وإنما نُنقَل من دار إلى دار » .

إن حاجة الإنسان إلى الدين تنبثق - قبل كل شيء - من حاجته إلى معرفة حقيقة نفسه وإلى معرفة حقائق الوجود الكبرى . وأول هذه الحقائق وأعظمها وجود الله تعالى ووحدانيته وكماله سبحانه . فبمعرفته والإيمان به - جلَّ شأنه - تنحل عقد الوجود ، ويتضح للإنسان الغاية والوجهة ، ويتحدد المنهج والطريق .

* *

● حاجة الفِطرة البَشرية :

٢ - ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية . ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضاً . فالإنسان ليس عقلاً فقط ، كالأدمغة الألكترونية . إنما هو عقل ووجدان وروح . هكذا تكوَّنت فِطرته ، ونطقت جبلته . فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة ، ولا يشبع نهمته فن ولا أدب ، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة ، ويظل قلق النفس ، جوعان الروح ، ظمآن الفطرة ، وشاعراً بالفراغ والنقص ، حتى يجد العقيدة فى

الله ، فيطمئن بعد قلق ، ويسكن بعد اضطراب ، ويأمن بعد خوف ، ويحس بأنه وجد نفسه .

يقول الفيلسوف « أچوست سياتيه » فى كتابه « فلسفة الأديان »[1] : « لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أُحرِّك شفتى بهذا السؤال مرة ، إلا وأرانى مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين ، لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لى : ذلك له أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج ، فأقول لهم : قد اعترضتُ علىَّ نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ، ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها » .

ولا عجب أن وجدنا هذه العقيدة عند كل الأُمم ، بدائية ومتحضرة ، وفى كل القارات شرقية وغربية ، وفى كل العصور قديمة وحديثة ، وإن كان الأكثرون قد انحرفوا بها عن الصراط المستقيم .

يقول المؤرخ الإغريقى « بلوتارك » : « قد وُجِدت فى

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ، للمرحوم محمد فريد وجدى .

التاريخ مدن بلا حصون ، ومدن بلا قصور ، ومدن بلا مدارس ، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد » . . . .

ولهذا جعل القرآن الدين - بمعنى العقيدة - هو الفطرة البَشرية نفسها : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١) .

* *

• حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية :

٣ - وثمت حاجة أُخرى إلى الدين : حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها : وآلامه بها . . حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوى إليه ، وإلى سناد متين يعتمد عليه ، إذا ألَّمت به الشدائد ، وحلَّت بساحته الكوارث ، ففقد ما يحب ، أو واجه ما يكره ، أو خاب ما يرجو ، أو وقع به ما يخاف . هنا تأتى العقيدة الدينية ، فتمنحه القوة عند الضعف ، والأمل فى ساعة اليأس ، والرجاء فى لحظة الخوف ، والصبر فى البأساء والضرَّاء ، وحين البأس .

---

(١) الروم : ٣٠

إن العقيدة فى الله وفى عدله ورحمته ، وفى العوض والجزاء عنده فى دار الخلود ، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية ، فتشع فى كيانه البهجة ، ويغمر روحه التفاؤل ، وتتسع فى عينه دائرة الوجود ، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق ، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد فى حياته القصيرة الفانية ، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ، ولا يغنى عنه علم ولا فلسفة ، ولا مال ولا ولد ، ولا مُلْك المشرق والمغرب .

ورضى الله عن عمر إذ قال : « ما أصبتُ بمصيبة إلا كان لله علىّ فيها أربع نِعَم : أنها لم تكن فى دينى . . . وأنها لم تكن أكبر منها . . . وأننى لم أُحرم الرضا عند نزولها . . . وأننى أرجو ثواب الله عليها » (١)

أما الذى يعيش فى دنياه بغير دين ، بغير إيمان ، يرجع إليه فى أُموره كلها - وبخاصة إذا ادلهمت الخطوب ،

---

(١) انظر موضوع « الثبات فى الشدائد » من كتابنا « الإيمان والحياة » ، وكذلك موضوع « القوة » - طبع - مؤسسة الرسالة ببيروت ، ومكتبة وهبة بالقاهرة .

وتتابعت الكروب ، والتبست على الناس المسالك والدروب - يستفتيه فيفتيه ، ويسأله فيجيبه ، ويستعينه فيعينه ، ويمنحه المدد الذى لا يُغْلَب ، والعون الذى لا ينقطع - الذى يعيش بغير هذا الإيمان - يعيش مضطرب النفس ، متحير الفكر ، مبلبل الاتجاه ، ممزَّق الكيان ، شبَّهه بعض فلاسفة الأخلاق بحال « راڤاياك » التعس . الذى يحكون عنه أنه اغتال الملك ، فكان جزاؤه أن يُربط من يديه ورجليه إلى أربعة من الجياد ، ثم أُلهب ظهر كل منها ، لتتجه مسرعة إلى جهة من الجهات الأربع ، حتى مُزِّق جسمه شر مُمزَّق !

هذا التمزق الجسمى البشع مثل للتمزق النفسى الذى يعانيه مَنْ يحيا بغير دين ، ولعل الثانى أقسى من الأول وأنكى فى نظر العارفين المتعمقين ، لأنه تمزق لا ينتهى أثره فى لحظات ، بل هو عذاب يطول مداه ، ويلازم مَن نُكِب به طول الحياة .

ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرَّضون أكثر من غيرهم للقلق النفسى ، والتوتر العصبى ،

والاضطراب الذهنى ، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة ، فإما انتحروا انتحاراً سريعاً ، وإما عاشوا مرضى النفوس ، أمواتاً كالأحياء ! على نحو ما قال الشاعر العربى قديماً :

ليس مَن مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء !

إنما الميت مَن يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء !

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسى فى العصر الحديث . وهو ما سجَّله المفكرون والنُقَّاد فى العالَم كله .

يقول المؤرخ الفيلسوف « أرنولد توينبى » :

« الدين إحدى المَلَكات الضرورية الطبيعية البَشرية ، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحى ، تضطره إلى التماس العزاء الدينى على موائد لا تملك منه شيئاً » (١) .

---

(١) مختصر دراسة التاريخ : ٣/١٧٩

ويقول الدكتور « كارل بانج » فى كتابه « الإنسان العصرى يبحث عن نفسه » : « إن كل المرضى الذين استشارونى خلال الثلاثين سنة الماضية ، من كل أنحاء العالَم ، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم ، وتزعزع عقائدهم ، ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم » (١) .

وبقول « وليم چيمس » فيلسوف المنفعة والذرائع : « إن أعظم علاج للقلق - ولا شك - هو الإيمان » .

ويقول الدكتور « بريال » : « إن المرء المتدين حقاً لا يعانى قَط مرضاً نفسياً » .

ويقول « ديل كارنيجى » فى كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » : « إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى والاستمساك بالدين ، كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبى ، وأن يشفيا من هذه الأمراض » .

وقد أفاض الدكتور « هنرى لنك » فى كتابه « العودة

---

(١) انظر : كتاب الإسلام يتحدى ، ص ٢٨١

إلى الإيمان » فى بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجرَّبه من وقائع وفيرة ، خلال عمله فى العلاج النفسى [١] .

* *

● حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية :

٤ - وهناك حاجة أُخرى إلى الدين : حاجة اجتماعية ، إنها حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط : بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير ، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البَشر مَن يراقبهم ، أو يكافئهم .. وضوابط تحكم علاقاتهم ، وتُلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده ، ولا يعتدى على حق غيره أو يُفرِّط فى خير مجتمعه ، من أجل شهوات نفسه ، أو منفعته المادية العاجلة .

ولا يقال : إن القوانين واللَّوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث ، فإن القوانين لا تخلق باعثاً ،

---

(١) انظر : فصل « بين العلم والإيمان » من كتابنا « الإيمان والحياة » وبخاصة ما كُتِب تحت عنوان : « الطب النفسى فى موكب الإيمان » .

ولا تكفى ضابطاً ، فإن الإفلات منها ممكن ، والاحتيال عليها ميسور ، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط أخلاقية ، تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها . لا بد من هذا الباعث الداخلى ، ومن هذا : الوازع الذاتى ، لا بد من « الضمير » ، أو « الوجدان » أو « القلب » ، سمه ما شئت - فهو القوة التى إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد كله .

ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقراء التاريخ ، أن العقيدة الدينية لا يغنى غناءها شىء فى تربية الضمير وتزكية الأخلاق ، وتكوين البواعث التى تحفز على الخير ، والضوابط التى تردع عن الشر ، حتى قال بعض قضاة العصر فى بريطانيا - وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة ، رغم تقدم العلم ، واتساع الثقافة ، ودقة القوانين - : « بدون أخلاق لا يوجد قانون ، وبدون إيمان لا توجد أخلاق » [1] .

---

(١) انظر : فصل « الإيمان والأخلاق » من كتابنا : « الإيمان والحياة » - طبع مؤسسة الرسالة ببيروت ، ومكتبة وهبة بالقاهرة .

ولا غرو أن اعترف بعض الملاحدة أنفسهم بأن الحياة لا تستقيم بدون دين ، بدون عقيدة فى الله وفى الجزاء فى الآخرة ، حتى قال « ڤولتير » : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه » ! أى نخترع للناس إلهاً يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ويلتمسون رضاءه فيعملون الصالحات ، ويتجنبون السيئات .

ويقول مرة أخرى ساخراً : « لِمَ تشككون فى وجود الله ، ولولاه لخانتنى زوجتى ، وسرقنى خادمى » !!

وقال « بلوتارك » : « إن مدينة بلا أرض تقوم عليها ، أسهل من قيام دولة بلا إله » !!

* *

● شهادة التاريخ والواقع :

إن تجارب التاريخ وتجارب الواقع كلها تنطق بأصالة الإيمان فى الحياة ، وضرورته للإنسان ، فهو ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويزكو ، وهو ضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرقى .

يقول الأستاذ العقَّاد : « إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين فى جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شىء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه ، فى علاقته بتلك الجماعة ، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية من حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه .

« ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل الأخرى فى حركات الأُمم ، فإنها تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة .

« هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العُرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه ، على تعدد الأوطان والأقوام .

« أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود

بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير ، إلى غير نهاية ، بين آزال لا تُحصى فى القِدَم ، وآباد لا تُحصَى فيما ينكشف عنه عالَم الغيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الأعلى ، وغاياتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور .

« ومن أدلة الواقع على أصالة الدين : أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة ، والجماعة التى لا دين لها ، أو لا تعتصم من الدين بركن مكين .

« وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطَّل الضمير ، مضطرب الشعور ، يمضى فى الحياة بغير محور يلوذ به ، وبغير رجاء يسمو إليه .

« لهذا . . الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة فى منبتها وشجرة مجتثة من أُصولها ـ!

« وقَلَّ أن ترى إنساناً معطَّل الضمير ، على شىء من

القوة والعظمة ، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم ، إذا حلَّت العقيدة فى وجدانه محل التعطل والحيرة »[1] .

* * *

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٥ - ١٦

لا بديل عن الدين

ومن الناس مَن يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حيناً ، أو المذاهب الفكرية « الأيديولوچيات » الحديثة حيناً آخر .

وكِلا التصورين خطأ .

فقد بيَّن الواقع الناطق أنه لا شىء يغنى عن الدين ، ويقوم بديلاً عنه فى أداء رسالته الضخمة فى حياة الإنسان .

● العلم ليس بديلاً عن الدين :

أما العلم فليس بديلاً عن الدين والإيمان بحال . فإن مجال العلم غير مجال الدين . وأريد بـ « العلم » هنا العلم بمفهومه الغربى المحدود ، لا بمفهومه الإسلامى الشامل . الذى يشمل العلم بالظواهر الجزئية للكون ، والعلم بحقائق الوجود الكبرى . أى ما يشمل علم الدنيا ، وعلم الدين . فليس هو علم المادة وخواصها فحسب ، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان ، وخالقها سبحانه .

العلم بالمفهوم الغربى لا يصلح بديلاً عن الدين ، لأن مهمة هذا العلم أن يُيسِّر للإنسان أسباب الحياة ، لا أن يُفسِّر له ألغازها . العلم يعين الإنسان على حل مشكلة العيش ، ولكن لا يعينه على حل مشكلة الوجود وقضاياه الكبرى .

ولهذا نرى أعظم البلاد فى عصرنا تقدماً فى العلم ، وأخذاً بأسبابه ، يشكو أهلها من الفراغ الروحى ، والقلق النفسى ، والاضطراب الفكرى ، والشعور الدائم بالتفاهة والاكتئاب والضياع . ونرى شبابها ينقلبون بين شتَّى البِدع الفكرية والسلوكية ، ثائرين على آلية الحياة ، ومادية الحضارة ، وإن لم يهتدوا إلى المنهج السليم ، والصراط المستقيم .

وهذا هو سر العوج والشذوذ والانحرافات ، التى لمسها العالم كله فى سلوك أُولئك الشباب الحائرين ، الذين يسمونهم « الخنافس » أو « الهيبيين » وأشباههم ممن ضاق ذرعهم بتفاهة العيش ، وتمردوا على حضارة الغرب وإن نشأوا بين أحضانها .

إن العلم الحديث محدود الوسع ، محدود القُدرة ، محدود المجال .

في وسع العلم أن يمنح الإنسان الوسائل والآلات ، ولكن ليس في وسعه ولا من اختصاصه أن يمنحه الأهداف والغايات ، وما أتعس الإنسان إذا تكدَّست لديه الوسائل دون أن يعرف لنفسه هدفاً ولا لحياته قيمة ، إلا أهداف السباع في العدوان ، أو أهداف البهائم في الأكل والسِفاد ، أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان ، وخصائص الإنسان ، وكرامة الإنسان ، فلا .

إن الدين وحده هو الذي يمنح الإنسان أهدافاً عليا للحياة ، وغايات كبرى للوجود ، ويجعل له فيه مهمة ورسالة ، ولحياته قيمة واعتباراً ، كما يمنحه القِيَم الخُلُقية والمُثُل العليا التي تحبسه عن الشر ، وتحفزه على الخير ، لغير منفعة مادية عاجلة .

لقد أعطى العلم الإنسان جناحي طائر فحلَّق في الفضاء ، وأعطاه خياشيم حوت فغاص في أعماق الماء ، ولكنه لم يعطه قلب إنسان !

وحين يعيش الإنسان فى الحياة بغير « قلب الإنسان » تستحيل أدوات العلم فى يديه إلى مخالب وأنياب تقتل وتُرهب ، وإلى معاول وألغام تنسف وتُدمِّر .

تستحيل أدوات العلم إلى أسلحة نووية ، وقنابل نابالم ، وغازات سامة ، وأسلحة كيماوية وجرثومية تنشر الموت والخراب عند استعمالها ، وتشيع الذعر والخوف قبل استعمالها (١) .

أجل .. قد استطاع العلم أن يضع قدم الإنسان على سطح القمر ، ولكنه لم يملك أن يضع يده على سر وجوده وغاية حياته !

لقد اكتشف الإنسان بالعلم « أشياء » كثيرة . ولكنه لم يكتشف حقيقة نفسه ! أوصله علم القرن العشرين إلى

---

(١) انظر : كتاب « الأسلحة الكيماوية والجرثومية » تأليف الدكتور نبيل صبحى ، لترى ما يحضِّره أعداء الإنسانية لإفناء الأحياء بسلطان العلم ومقدرة العلماء !! نشرته « مؤسسة الرسالة » ببيروت .

القمر . ولكن لم يوصله إلى السعادة والطمأنينة على ظهر الأرض ! جلب من هناك بعض الصخور والأتربة ، ولكنه لم يجد هناك ما يُخرجه من التعاسة والقلق والضياع فى كوكبه !

أصلح العلم ظاهر الإنسان ، وعجز عن إصلاح باطنه ، لم يستطع أن ينفذ إلى تلك « اللَّطيفة الربَّانية » المدركة الواعية ، الشاعرة الحسَّاسة ، التى إذا صلحت صلح الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد الإنسان كله ، ألا وهى القلب ، أو النفس ، أو الروح ، سمها ما شئتَ ، فهى حقيقة الإنسان !

أعطى العلم إنسان القرن العشرين سلاحاً انتصر به على بعض قُوَى الطبيعة ، ولم يعطه ما ينتصر به على نفسه : على شهواته ، وشكه ، وقلقه ، وخوفه ، وتخبطه ، وصراعه الداخلى والاجتماعى .

لقد تقدَّم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما فى هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : إن العلم يستطيع

القضاء على كل مرض غير الموت والشيخوخة !! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » و« النفسية » التى هى نتائج وأعراض « التناقض » الشديد الذى يمر به الفرد والمجتمع .

لقد حاول العلم الحديث أن يُغَذِّى كل الجوانب المادية فى الجسم الإنسانى ، ولكنه فشل فى تغذية الشعور والأمانى والإرادة . . . وكانت حصيلة ذلك جسماً طويل القامة ، ممتلئ النواحى ، ولكن الجانب الآخر من الجسم - وهو أصل الإنسان - أصبح يعانى من أزمات لا حدَّ لها .

لقد أكَّدت إحصائية : أن ثمانين فى المائة (٨٠٪) من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن الأعصاب من ناحية أو أُخرى ، ويقول علم النفس الحديث : إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية : الكراهية والحقد والجريمة والإرهاق واليأس والترقب والشك والأثرة والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله .

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقيناً جبَّاراً حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد فى سبيل هدف سام أعلى ، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة .

إن الإيمان بالله يعطى الإنسان « محركاً » هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ومصدر قوة العقيدة . . . العقيدة التى عبَّر عنها السير « وليام أوسلر » بقوله : إنها قوة محركة عظيمة ، لا توزن بأى ميزان ، ولا يمكن تجربتها فى المعامل .

إن هذه العقيدة هى سر مخزن الصحة الموفورة التى يتمتع بها أصحابها . وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهى إلا بالأمراض أقساها وأعتاها .

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود فى الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم فى نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه الأمراض ، وهذه الظاهرة تثير شعوراً كئيباً بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا فى الميدان

الأخير ، ولذلك أكبُّوا على الميدان الثانى يسترون خيبتهم ويُظهرون بطولتهم أمام العالم !

وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلاً : إن علماء الطب النفسى يبذلون كل جهودهم فى كشف أسرار « القفل » الدقيقة الذى سوف يغلق علينا كل أبواب الصحة !

فالمجتمع الجديد يسير في اتجاهين في وقت واحد ، فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكمالات المادية ، على حين يتسبب - لتركه الدين - فى خلق أحوال تجعل من الحياة جحيماً ، إنه يعطيك دواء الشفاء من الفم ، ويحقنك السم فى العضل !! [١] .

* *

● الأيديولوچيات الحديثة لا تغنى عن الدين :

وإذا كان العلم لا يصلح قَط بديلاً عن الدين ، فمثله المذاهب الفكرية الوضعية « الأيديولوچيات » التى أصبح

---

(١) عن كتاب « الإسلام يتحدى » ، تأليف : وحيد الدين خان ، تعريب : مظفر الإسلام خان ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩

لها فى عصرنا دعاتها ومبشروها . فهى لا تستطيع أبداً أن تقوم مقام الدين . وهذا أحد الخبراء العالمين بالمذاهب والحضارات يحدثنا عن ذلك . فلنستمع إليه .

يقول « أرنولد توينبى » فى كتابه « العادة والتغيير » :

« إن من الخصائص الأساسية للإنسان « الإدراك » .. إدراك وجوده .. وإدراك العالَم المحيط به .. سواء من البَشر أو العالَم المادى وغير المادى .. هذا الإدراك هو ما جعل الإنسان مختاراً فى تصرفاته ، ذا إرادة فيما يتخذ من قرارات .. فقد قاده هذا الإدراك إلى اكتشاف أنه لا يعلم عن العالَم الذى يعيش فيه إلا القليل من القشور .. وأن هذا القليل الذى يعرفه لا يستطيع أن يُفسِّر له سر الحياة والكون . ولقد أدرك أن الكلمة الأخيرة فى مصيره ليست فى متناوله .. ولكنها مِلْك قوى قاهرة ، عليه أن يتعرَّف عليها ، وأن يعيش متوافقاً معها متصلاً بها .

وحيث إن التدين جزء من الطبيعة البَشرية .. وحيث إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش دون دين من نوع ما .. فلقد ترتب على تراجع الدين عن موقعه فى

أوروبا أن قامت ديانات بديلة تسمى : المذاهب الفكرية ، أو « الأيديولوچيات » الفردية أو الرأسمالية ، والجَماعية أو الشيوعية ، والوطنية أو القومية .

إن الحرب الباردة التى يستعر أوراها بين « الأيديولوچيات » المعاصرة من جانب ، والأديان العليا (السماوية) من جانب آخر هى أخطر - بالنسبة لمستقبل البَشرية - من المشادة بين الشيوعية والرأسمالية ، بالرغم مما يلقاه الحوار بينهما من اهتمام عالَمى . فهل هذه « الأيديولوچيات » أديان جديدة أم انتكاسات ؟

فى الحق إنها ليست أمراً جديداً . . إنها انتكاسة للحرية التى اكتسبها الإنسان عبر العصور . . إنها تأخر ورجعية إلى فجر الحضارة حينما كان الإنسان يعبد ما لا يستطيع أن يسيطر عليه من قُوَى غامضة ، وهو حينما تقدَّم واستطاع أن يكون له دور مهم فى البيئة الطبيعية . . ترك عبادة قُوَى الطبيعة ، وعبد قُوَّته الجَماعية كما تتمثل فى الحاكم .

إن الشيوعية قد أخطأت السبيل - لا فى إصرارها على

العدالة الاجتماعية - ولكن فى تضحيتها بالحرية من أجل العدالة .

والرأسمالية أيضاً قد أخطأت السبيل - لا فى إصرارها على احترام فردية الإنسان وحريته - ولكن فى تضحيتها بالعدالة فى سبيل الفردية .

إن كلا منهما يؤيد جانب على حساب الآخر .. وكلتا النظريتين مادية ، وكما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده .. فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان .

على أنه يبدو أن كلتا العقيدتين ستستمر فى الحياة ، ولن تستطيع إحداهما التغلب نهائياً على الأخرى .. والاثنان فى صراع مع الوطنية أو القومية .. ولو أن هذا الصراع لا يحظى باهتمام كبير .. ولكنه ما إن تصطدم إحداهما مع الوطنية حتى تنتصر الوطنية .. وحينئذ يصبح الشيوعى والرأسمالى وطنياً أولاً وتتبعها صفته الثانية : الشيوعية أو الرأسمالية .

إن جميع « الأيديولوچيات » تشترك فى نقطة ضعف

واحدة قد تودى بها جميعاً ، وذلك فى منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير .

وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان . . فبعد أن حرَّرته الأديان من عبودية المجتمع ، وعبودية الفرد ، ليتجه إلى الله وحده . . عاد الإنسان إلى سجن المجتمع ، وبعد أن كان فى علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة . . عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة .

فتضاءل ليصبح مجرد نملة اجتماعية فى مجتمع النمل !!

لقد استطاعت الأديان أن تُعلِّم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية . . ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار . . ولن تستطيع « الأيديولوچيات » أن تنسيه هذه الحقيقة . . لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحى الذى منحته له الأديان . صحيح أن بعض الأديان قد أقامت سجوناً من صنعها ، حينما خلقت من الأجهزة والنُظم ما أصبح حاجزاً بين الإنسان وخالقه ، كما كان يصنع المجتمع القديم من قبل . . وهذا التحكم والتسلط من جانب بعض الأجهزة الدينية يتناقض أساساً مع سبب وجودهما فإنها

وُجِدت لتحرر الإنسان من إسار المجتمع ، وتضعه مباشرة أمام مسئولياته فى علاقة مباشرة مع الحقيقة السرمدية الخالدة .. ومع ذلك فبالرغم من هذا التسلط والتحكم من جانب بعض الأديان ، إلا أنها استطاعت أن تمنح معتنقيها هدية لا تستطيع أن تجاريها فيها « الأيديولوچيات » الحديثة .. لقد منحته الاطمئنان من المساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح .. لقد منحته الراحة الروحية وحرَّرته من سجون المجتمع .

إن كل إنسان يخطئ ويفشل .. ويزل ويشقى .. وفى النهاية ينتهى إلى الموت ، ومن هنا جاءت حاجته العميقة إلى العون الروحى الذى لا تستطيع أن تقدمه له « الأيديولوچيات » .

ومع هذا فإن « الأيديولوچيات » ستستمر فى اجتذاب الناس إلى حظيرتها ما لم تعمل الأديان على أن تستعيد سلطانها على قلوب البَشر .. وهى لن تستطيع ذلك إلا إذا صدقت مع نفسها واستطاعت :

١ - أن تتعاون بدلاً من الصراع والعداوة .

٢ - وأن تهتم اهتماماً جدياً بحقائق العصر الحديث .

٣ - وأن تنفض عنها الطقوس التى طغت على جوهرها .. مما تراكم من الخزعبلات عبر العصور .

فالدين هو قلب الحياة للإنسان .. وهو جوهر الحياة للإنسانية .. هو النور الذى يغمر القلوب ، فلا غِنَى للإنسان عن الدين .. ولن تستطيع « الأيديولوچيات » أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض ، بدلاً من أن تمنحنا المحبة والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحى »(١) .

* *

● الرد على دعوى الماركسيين :

أما ما يردده الماركسيون من أن الدين « أفيون الشعوب » فهو ادعاء باطل ومردود من وجهين :

---

(١) عن مجلة « الوعى الإسلامى » السنة الثالثة - العدد السابع والعشرون - مقال « الأيديولوچيات والدين » . ترجمة الأستاذ محمد همام الهاشمى الخبير الاجتماعى بمجلس التخطيط بالكويت .

الأول : أن الدين الصحيح لا يُخدِّر الشعب ، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه فى الدنيا ، استغراقاً بطلب النعيم فى الآخرة ! الدين الصحيح لا يقر الظلم ، ولا يرضى بالفساد والانحراف ، فإن صح هذا الادعاء فى شأن بعض الأديان ، فلا يصح بحال فى شأن الإسلام .

الإسلام فى الحقيقة ثورة إنسانية كبرى .. ثورة لتحرير الإنسان - كل إنسان - من العبودية والخضوع لغير خالقه .. ثورة فى عالَم الفكر والضمير والشعور ، وثورة فى عالَم الواقع والتطبيق .

وكان عنوان هذه الثورة هى هذه الكلمة العظيمة ، كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » فكل مدّع أو متعاط للألوهية فى الأرض ، بالقول أو بالفعل ، هو مزوّرٌ لا وجود له . ولا يستحق البقاء . وكل الذين زعموا لأنفسهم - أو زعم لهم بعض الناس - أنهم أرباب مع الله ، أو من دون الله ، يجب أن يسقطوا إلى الأبد ، ويتواروا عن مسرح الحياة .

الناس إذن سواسية ، لا يجوز أن يستعبد بعضهم بعضاً ، أو يطغى بعضهم على بعض ، فإذا ظلم بعض الناس

وطغى وأفسد ، كان على الناس أن يعترضوا طريقه ، ويأخذوا على يديه ، وإلا كانوا شركاءه فى الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله .

يقول الله الكريم : ﴿ وَلَا تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده » (٣) .

ويوجب على كل مَن رأى منكراً - أى ظلماً أو فساداً أو انحرافاً - أن يعمل على تغييره بكل ما يستطيع من قوته : « مَن رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع

---

(١) هود : ١١٣ (٢) الأنفال : ٢٥

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [1] .

والتغيير بالقلب - الذى هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان - ليس أمراً سلبياً تافهاً . إنها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر تتوهج وتتقد فى الجوانح حتى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل ، باللِّسان أو اليد . وأدنى ثمراته العاجلة النفور من الظَلَمة والمفسدين والمقاطعة لهم ، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم ، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم .

وقد عَدَّ النبى ﷺ مقاومة الظلم والفساد الداخلى ، كمقاومة الغزو والعدوان الخارجى . كلاهما جهاد فى سبيل الله . بل حين سُئِل : أى الجهاد أفضل ؟ قال : « كلمة حق عند سلطان جائر » [2] فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه .

---

(١) رواه مسلم وغيره .

(٢) رواه النسائي بإسناد صحيح كما فى « الترغيب » .

فهذا دين يحرِّض على مقاومة الظلم حتى الموت . ويعد الميت فى سبيل ذلك شهيداً فى سبيل الله ، بل فى طليعة الشهداء المرموقين ، بجوار حمزة بن عبد المطلب ، سيد الشهداء كما قال عليه الصلاة والسلام : « سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر ، فأمره ونهاه فقتله » [1] .

إن الإسلام يُربِّى المسلم على الشعور بالكرامة وعزة النفس ، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] ، بل من خصائص الإنسانية ولوزامها : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [3] .

ولهذا يبرأ الإسلام مِن كل مَن يرضى لنفسه بالذل والمهانة ، ويصبر على القيد يوضع فى رِجله ، أو الغل يوضع فى عنقه دون أن يقاوم الظلم ، أو يحاول التخلص

---

(١) رواه الحاكم والضياء عن جابر وحسَّنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير .

(٢) المنافقون : ٨ (٣) الإسراء : ٧٠

منه ، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة . يقول القرآن . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١) .

ويرد الرسول ﷺ منطق الاستسلام الجبرى أو السلبى لأحداث الحياة ووقائع الدهر ، باسم الإيمان بالقَدَر . ويعتبر ذلك ضرباً من العجز المذموم فى دين الله . إن النبى صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونِعْمَ الوكيل ! فقال النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر ، فقل : حسبى اللهُ ونِعْمَ الوكيل » (٢) .

كره النبى العظيم من الرجل أن يوارى عجزه بالحسبلة والحوقلة ، بدل أن يواجه الأمر بما ينبغى له من الحكمة والتفطن . فذِكْرُ الله فى غير موضعه عجز واستسلام .

---

(١) النساء : ٩٧ (٢) رواه أبو داود برقم (٣٦٢٧) .

ومن هنا جاء فى وصاياه صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوىُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ... احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » [1] .

وجاء فى أدعيته التى علَّمها لبعض أصحابه : « اللَّهُمَّ إنِّى أعوذُ بك من الهَمِّ والحَزَن ، وأعوذُ بك من العجز والكسل ، وأعوذُ بك من الجبن والبخل ، وأعوذُ بك من غلبة الدَّيْن وقهر الرجال » [2] .

ففى هذا الدعاء استعاذة بالله تعالى من كل مظاهر الضعف التى تعترى الإنسان فتغلبه وتقهره وتذله .

ومثل ذلك ما جاء فى دعاء القنوت : « اللَّهُمَّ إنَّا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونُثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا

---

(١) رواه مسلم .. والعجز : ترك ما يجب فعله بالتسويف ، والكيس : العقل وحُسن التصرف .

(٢) رواه أبو داود برقم (١٥٥٥) وفى سنده راوٍ ليِّن الحديث ، ولكن المفردات المستعاذ منها ثبتت فى الصحاح .

نكفرك ، ونخلع ونترك مَن يفجرك » .. فانظر ما تحمله هذه العبارة : « ونخلع ونترك مَن يفجرك » من تحريض سافر على خلع ومقاومة كل ظالم فاجر ، مهما تكن مكانته ومنصبه فى الناس .

فهل يقال فى مثل هذا الدين الذى يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية ، ويحرِّض على نُصرة الحق والقوة والحرية - إنه أفيون الشعب : يُخدِّره ويمنيه بنعيم الجنَّة ، ليسكت على مظالم حياته الدنيا ؟!!

لعل « ماركس » كان معذوراً حين قال ما قال ، لأنه لم يعرف الإسلام ، ولم يعرف موقفه من الظلم والبغى والفساد ، مع أن المنهج العلمى كان يُلزمه ألا يصدر حكمه عاماً شاملاً إلا بعد استقراء كامل ، ودراسة تامة لكل الأديان - أو للأديان الكبرى على الأقل - وأثرها فى الأُمم على مدار التاريخ ، فإن لم يستطع كان عليه أن يحكم على الدين الذى عرفه لا على غيره . هذا هو مقتضى الأمانة العلمية ، والمنهج العلمى .

قلت هذا عن « ماركس » منذ سنوات ونشرته مجلة

« منار الإسلام » فى دولة الإمارات العربية المتحدة . ثم أتيح لى أن أقرأ أخيراً ما كتبه الأستاذ الدكتور رشدى فكّار - المتخصص فى دراسة الماركسية وفلسفتها وأُصولها ومدارسها - عن رجوع « ماركس » فى أُخريات حياته إلى الاعتراف بالدين بعد الرفض له ، وأن رفضه فى المراحل الأولى كان سياسياً ولم يكن فلسفياً . . وأن بعض مفكرى الماركسية الكبار من المعاصرين أمثال « روجيه جارودى » (١) أكّدوا ذلك ، واعتبروه « مرونة » من ماركس . واعتبره « فكّار » : « ارتداداً » ، والأوْلَى تسميته « رجوعاً » .

ينقل الدكتور فكّار عن « ماركس » قوله بصريح العبارة :

« الإلحاد لا معنى له ، لأنه إنكار للإله بلا مبررات ، اللّهُمَّ إلا إذا كان الهدف أن يحل الإنسان محل الإله » !

ويكرر « ماركس » نصاً : « الاشتراكية ليست فى حاجة إلى مثل هذه الشطحات التجريدية الجوفاء ، والمضاربة على الإله » .

---

(١) كُتِب هذا الكلام قبل أن يهتدى « جارودى » إلى الإسلام .

ومن الأدلة على تغير موقف « ماركس » : الرسالة التى وجهها إلى « البابا » يهنئه فيها على موقفه من « الحلف المقدَّس » ورفضه الدخول فيه ، والانضواء تحت لوائه : حلف أُولئك الذين شوَّهوا جوهر الدين ، حين اتخذوا منه « شُرطة روحية » فى خدمتهم والدين منهم براء !

ومن ذلك مهاجمته للفيلسوف الملحد المشهور « فيورباخ » حيث وصفه « بأنه جعل من الوجدان والروح الدينية شيئاً راكداً جامداً ، لا قدرة فيه أو له على التغيير » .

و« فيورباخ » هو صاحب الكلمة الجاحدة الجاهلة : « ليس صواباً أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب : أن الإنسان هو الذى خلق الله » . .

وكبرت كلمة خرجت من فِيه ، ما قال إلا كذباً .

وأكثر من ذلك وأصرح وأوضح : هذا النص الذى يقول فيه « ماركس » حرفياً - كما يقول الدكتور فكَّار - : « إن الإلحاد قد عاش وقته . . إنه تعبير سلبى ، لا يعنى

شيئاً بالنسبة للاشتراكيين الأُصلاء ، إن المعنى لديهم ليس هو إنكار الإله ، وإنما هو تحرير الإنسان » [١] .

ولكن مهما يكن عذر « ماركس » فما عذر الذين نشأوا فى ديار الإسلام ، ولم يكلفوا أنفسهم أن يدرسوه من مصادره ومن كتابات المحققين من علمائه ودعاته ؟

إن الذى يقرأ الكتب الإسلامية يراها طافحة بإنكار علماء الدين وأئمته على الظلم والظَّلَمة ، والمناداة بإنصاف المظلومين من طبقات الشعب الكادحة [٢] .

* * *

(١) انظر فى هذا : فصل « فى الماركسية والدين » من كتاب « تأملات إسلامية في قضايا الإنسان والمجتمع » ص ٥٥ - ٦٨ نشر مكتبة وهبة - القاهرة .

(٢) انظر : كتاب « مواقف حاسمة للعلماء فى الإسلام » للأستاذين : على شحاتة وأحمد رجب ، ففيه أمثله عديدة على ذلك . وخاصة فى فصل « حماة الشعب » .

أثر الإسلام فى حركات المقاومة والتحرر من الاستعمار

إن الذى يقرأ التاريخ الحديث يجد أن التيَّار الإسلامى كان وراء كل حركات المقاومة المستميتة للاستعمار فى كل صِقع من ديار الإسلام .

يقول الأستاذ « برنارد لويس » فى كتاب « الغرب والشرق الأوسط » :

« ومنذ بدء التغلغل الغربى فى العالَم الإسلامى ، حتى يومنا هذا ، كانت أهم الحركات الفكرية المتميزة المهمة الأصيلة التى قامت فى وجهه : حركات إسلامية .

« ولقد كان اهتمام هذه الحركات بمشاكل الإيمان والعقيدة ، وبمشاكل الجماعة المسلمة التى سيطر عليها غير المسلمين ، أكثر من اهتمامها بأرض أو بلد احتله الأجانب .

« وأقوى الحركات الثورية التى قامت ، والتى كسبت أقوى التأييد ، وأثارت حماس أغلب الجماهير كانت دينية شعبية فى أُصولها ، وفى شعاراتها ، وفى الأُسلوب الذى عبَّرت به عن غايتها وسبيلها .

« ولقد مرَّ العالَم الإسلامى فى تاريخ مواجهته الطويلة للمدنية الغربية بمراحل متعددة من اليقظة والمقاومة ، من المسايرة والرفض . . وحتى الأمس القريب كان للمشاكل التى تظهر دراسة ، وقياس ، وحلول فى إطار الإسلام .

« ونستطيع القول فى أيامنا هذه : إن من التهور التأكيد على أن « علمنة » المشاعر الإسلامية بلغت حداً لا رجوع بعده » (١) .

وفى موضع آخر يقول صاحب كتاب « الغرب والشرق الأوسط » :

« وأهم حركات المقاومة للغربيين المنتصرين المحتلين ، وأكثرها نجاحاً ، كانت فى الأناضول ، حيث قام جمع من الثوار بقيادة مصطفى كمال ، وتحدوا الحلفاء واليونان والحكومة العثمانية التى كانت قائمة فى ظلهم .

« ولقد حجبت علمانية وقومية الكماليين التى أعلنوها

---

(١) الغرب والشرق الأوسط : ترجمة الدكتور نبيل صبحى ص ١٤٨ ، ١٤٩

أخيراً ، الطابع الإسلامى القوى لحركة المقاومة فى أول مراحلها ، ولقد كان شعار الحركة : تحرير أرض الإسلام ، وشعوب الإسلام ، وتحرير الخليفة - السلطان - وطرد الغزاة المشركين .

« ولقد كان الزعماء الدينيون من العلماء ومن حركة الإخوان الدراويش ، أبرز المؤسسين ، وأقوى المساندين لحركة المقاومة ، التى قادها - بعد ذلك - مصطفى كمال »[1] .

أى إن حركة المقاومة كانت فى أساسها إسلامية ، غذتها الروح الإسلامية والمشاعر الإسلامية ، ثم سرقها وقادها العلمانيون القوميون : مصطفى كمال وأشياعه ، ونسبوا فخرها لأنفسهم ، وقطفوا ثمارها لعلمانيتهم .

والوجه الثانى فى الرد على الماركسيين : أن الذى عابوه على الدين وقعوا هم فيه ! عابوا على الدين ما فيه من غيبيات وتنبؤات مستقبلة مجهولة ! ومذهبهم ملئ بالحتميات والتنبؤات التى يكنها صدر الغيب !

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٨

عابوا على الدين ما فيه من تعظيم للأنبياء والقدِّيسين ، وما فيه من رسوم وشعائر تعبدية . ومع هذا نجدهم قد اتخذوا الأسلوب نفسه ، فإن الماركسية - كما هو معلوم لدى دارسيها ونُقَّادها - ليست مجرد فلسفة باردة ، إنها ديانة ، لها عقائدها وإنجيلها ، ورسلها وقدِّيسوها وطقوسها وشعائرها ، « وإن حشود المتعبدين يمرون يومياً في « موسكو » أمام جثمان « لينين » في لحده الرخامي الأسود ، وعلى وجوههم أمارات الخشوع والإجلال ، مرور المؤمنين من قبل أمام رفات الشهداء » [1] (يعنى : في المسيحية ، فالإسلام يعتبر هذه المظاهر من الشِرك والوثنية) .

يقول الباحث الباكستاني الأستاذ ميرزا محمد حسين في كتابه عن « الإسلام وتوازن المجتمع » [2] :

---

(١) كرمنلو ص ١٥٣ وما بعدها . نقلاً عن المذاهب الأخلاقية للدكتور عادل العوا : ٢/ ٢٠٣ ، ومن قريب رأينا الجماهير الغفيرة بالملايين في الصين الشيوعية تقف وقفة التقديس والخشوع نفسها أمام جثمان الزعيم الصيني « ماو » فكيف يفسِّرون هذا الموقف تفسيراً مادياً وفقاً لفلسفتهم التقليدية ؟!!

(٢) ترجمة فتحى عثمان ص ٧٩

« إن البلشفية (الشيوعية) تستميت فى عداء الدين ، من أجل مظاهره الغامضة ، وعدته من الطقوس والشعائر ، ومع ذلك لم تحرز البلشفية تفوقها إلا بانتحال أساليب الدين ووسائله . ومن هنا تُدْعَى الآن « ديناً » .

أما كتبها المقدَّسة فهى تعاليم « كارل ماركس » التى يُنظر إليها بكل إجلال ، باعتبارها كشفاً وإلهاماً ، كما يُنظر إليها باعتبارها معصومة من أى خطأ !

وللشيوعية شُرَّاحها ومريدوها ودعاتها ، حتى شهداؤها !

ولها عقائدها وأُصولها ، وبدعها الزائفة المرفوضة !

وهى تأخذ فى مطاردة الهراطقة . . وفى تصفية الزنادقة ، وفى إقامة محاكم التفتيش ، وفى عمل المذابح ضد المتشككين والمنكرين والمرتَدِّين !

ولها طرائقها فى « الإلهام » و« الحرمان » !

ولها معبد أوثانها ، وأيقوناتها . الڤاتيكان لديها هو « الكرملين » . والوثائق البابوية هى كتابات « ستالين » !

ولها طقوسها ورموزها المعقَّدة مثل أى دين ! [1] .

وإنها لتشغل قلوب أتباعها بوعود الخلاص ، وآمال المستقبل ، والجزاء المنتظَر فى نعيم الدنيا !!

وهى تتظاهر بأنها لا تعرض للدين فى معانيه الموروثة التى تلقى احترام الناس ، كما أنها لا تحاول إصلاح مفاهيمه إصلاحاً سليماً يُعتد به .

ولكنها تعمل على أن تطوى الدين تماماً وتحل محله

---

(١) « الخطيئة » – فى نظر هذه الديانة – هى الرأسمالية ، و« إبليس وجنوده » هو : القُوَى البرجوازية والرجعية ، و« المُخلِّص » هو الحزب ، و« مملكة السماء » هو الشيوعية ، و« الكَهَنة » هم المحترفون الثوريون الذين يستشفون أعمق أعماق الطبقة الكادحة ، ويتلقون الأسرار الحقيقية من خلال « رؤاهم » ويذيعونها على « المؤمنين » ، وأخرويات هذه العقيدة الجديدة ليست « ميتافيزيقية » ، بل هى أخرويات « علمية » ، فهى « اشتراكية علمية » . أما الطقوس والابتهالات فيلتمسها هؤلاء فى نظرية وتكتيك الحزب عند لينين . . إلخ .

انظر : حلقة البحث الإسلامية : ما بعد النكبتين ص ٢٢ – ٢٣

شعارات معادية للألوهية ، ولكنها « دين » من طراز غريب » !

والواقع أن الذى ينبغى أن يُطلق عليه بحق أنه أفيون الشعب هو : الإيمان بالشيوعية ، فهى التى تُمنِّى الناس بجنَّة موهومة على الأرض ، جنَّة تختفى فيها الفوارق ، وينعم الناس بالرخاء والأمن والمساواة والحرية .

وقد مضى على قيام أول دولة ماركسية نحو ستين سنة وهم فى ظل ديكتاتورية متسلطة مستبدة لم ير التاريخ أشد منها ظلماً وطغياناً وتجبراً . وأصدق شاهد على ذلك حملات التطهير وحمَّامات الدم ، التى تُقام بين حين وآخر .

ومن الغريب أن تجد فى أبناء المسلمين مَن ينادى بإبعاد دينهم عن قيادة المجتمع ، وتوجيه الحياة فيه ، على حين نجد من مفكرى الغرب مَن يترقب أو يتمنى أن يكون للإسلام دور فى هداية المجتمع العالمى ، والأخذ بيديه إلى

الصراط المستقيم ، أو المنهج المتوازن الذى هو طابع هذا الدين .

يقول الدكتور « جرمانوس » : « إن مستقبل العالَم وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعى الذى يهدده ، لن يكون إلا فى المزاوجة بين الحضارة الأوروبية بدرسها وعلمها ، وبين الروح العالية التى تنطوى عليها عقائد الدين الإسلامى . وإنى أُؤمل أن يكون الإسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة فى سبيل وحدة الجماعة الإنسانية . . » .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

المقدمة ٥

الدين فى عصر العلم ٩

الحضارة والعلم ١٠

موقف الإسلام من العلم ١١

أثر العلم الإسلامى فى الحضارة ١٨

الإسلام يوحّد بين الدين والعلم ٢٨

مشكلة التعارض بين الدين والعلم وأين نشأت ؟ ٣٠

العلوم لا تعارض الدين بل تخدمه من جهتين . ٣٣

تفسير المصادمات التى وقعت بين العلم والدين . ٣٦

دور الدين لم ينته ولن ينتهى ٤١

مناقشة نظرية « أوجست كومت » ٤٣

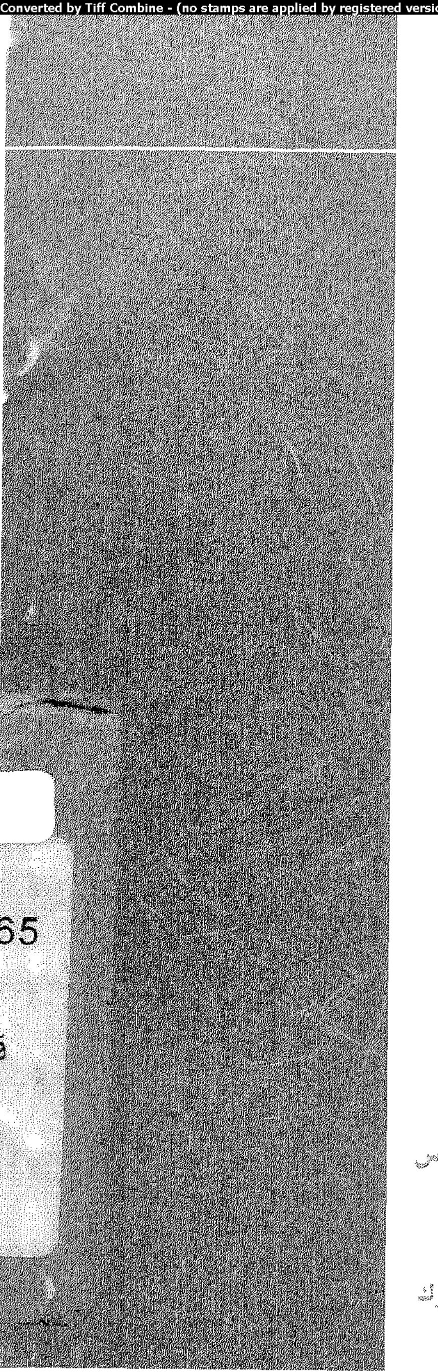
ملاحظة جديرة بالتنبيه ٥٧

رفض تخرصات الفلسفة الميتافيزيقية ٥٧

الصفحة

المراد بالدين « دين الكنيسة الغربية » ٦٠
حاجة الإنسان إلى الدين ٦٥
حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى فى الوجود ٦٥
حاجة الفِطرة البَشرية ٧٢
حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية . . ٧٤
حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية . . . ٧٩
شهادة التاريخ والواقع ٨١
لا بديل عن الدين ٨٥
العلم ليس بديلاً عن الدين ٨٥
الأيديولوچيات الحديثة لا تغنى عن الدين ٩٢
الرد على دعوى الماركسيين ٩٨
أثر الإسلام فى حركات المقاومة والتحرر من الاستعمار ١٠٩
محتويات الكتاب ١١٧





دار الفرقان للنشر والتوزيع

الإدارة والمكتبة - العبدلي - عمارة جوهرة القدس
مقابل وزارة التربية والتعليم
هاتف : ٦٤٠٩٣٧ - ٦٤٥٩٣٧ - فاكس : ٦٢٨٣٦٢
ص.ب : ٩٢١٥٢٦ عمان - الأردن
مكتبة دار الفرقان - إربد - مقابل جامعة اليرموك
هاتف : ٢٧٦٥٠٦